سلسلة الأعمال المترجمة (7)

ترجمة آلية

طرابلس الغرب وتونس

1892

تأليف

بول راديو

ترجمة آلية للعربية

توفيق عيّاد الشقروني

2025

LIBYAN
WORD
BRIDGE
Translation

الجمعية
الليبية
للدراسات
الأمازيغية

طرابلس الغرب وتونس

1892

تأليف

بول راديو

ترجمة آلية للعربية

توفيق عيّاد الشقروني

2025

LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية


Conserver la couverture

PAUL RADIOT

2181

TRIPOLI

طرابلس

D'OCCIDENT

الغرب

ET

و

TUNIS

تونس

١٨٩٢

1892

PARIS

E. DENTU, Libraire-Éditeur, 3 et 5, Place de Valois

غلاف الكتاب

عنوان الكتاب:طرابلس الغرب وتونس- 1892
تأليف: بول راديو
ترجمة الية: توفيق عيّاد الشقروني
الناشر:الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية/ مؤسسة Libyan Word Bridge
السنة 2025م
سلسلة الأعمال المترجمة (7)
التصميم والإخراج: الناشر

LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية

إهداء

إلى بنت ليبيا

فهرس المحتويات

كلمة الناشر

من قلب شغفنا بالمعرفة، ورغبتنا الصادقة في بناء جسور متينة بين الثقافات، انطلقت مؤسسة "Libyan Word Bridge" لتكون منصة ثقافية حقيقية، تتيح للقارئ الولوج إلى عوالم المعرفة الغربية، وتشاركه رحلة استكشاف الآفاق الفكرية والأدبية المتنوعة. نسعى جاهدين إلى سد الفجوة المعرفية، وإثراء المحتوى العربي بمواد علمية وأدبية ذات قيمة حقيقية، مستفيدين من الإمكانات الهائلة التي يوفرها التطور المتسارع في مجال الترجمة الرقمية، ومن توفر العديد من الكتب التي أصبحت خارج نطاق حقوق الملكية الفكرية، لتصبح متاحة للجميع دون قيود أو حواجز.

نعلم جيدًا أن الاعتماد على الترجمة الإلكترونية، على الرغم من إيجابياته الكثيرة في الوصول إلى كم هائل من النصوص، لا يزال يشكل تحديًا حقيقيًا يواجهنا بمسؤولية كبيرة. فما زالت هذه التقنية في طور التطور، وقد تعجز أحيانًا عن نقل المعنى بدقة متناهية، أو التعبير عن جماليات اللغة الأصلية، أو نقل المشاعر والأحاسيس التي تحملها الكلمات. إلا أننا نرى في وضوح هذه الترجمة وقابليتها للفهم، دافعًا قويًا للاستمرار في هذه التجربة، فهدفنا الأسمى ليس مجرد نقل الكلمات، بل إتاحة المعرفة وتعميم الفائدة منها، وجعلها متاحة لأكبر شريحة ممكنة من القراء.

ونحن على ثقة بأن القارئ، بوعيه وفطنته، سيقدر قيمة هذه الجهود، وسيتجاوز أي قصور لغوي أو أسلوبي قد يظهر في بعض النصوص، وسيتعامل معها بعقل نقدي واعٍ، مدركاً أن الترجمة، مهما بلغت دقتها، تبقى في النهاية وجهة نظر بشرية، تحمل معها جزءاً من شخصية المترجم

وخلفيته الثقافية.

إننا إذ نقدم هذه الترجمات، فإننا نضع نصب أعيننا هدفاً آخر لا يقل أهمية، وهو أن تكون ترجماتنا محايدة وموضوعية قدر الإمكان، وأن تكون بمثابة مرآة تعكس بصدق رؤية المؤلف الأصلية، لا أن تكون صدى لأهوائنا أو تحيزاتنا الشخصية. فكم من مرة رأينا كيف أن التوجه الأيديولوجي للممولين، أو الخلفيات الفكرية للمترجمين، أو حتى المصالح التجارية، قد أثرت على طبيعة الترجمة، وشوهت بعض معانيها، أو حرفتها عن مقاصدها الأصلية. هذه الاعتبارات مجتمعة، تخلق في كثير من الأحيان قيوداً غير مرئية، قد تُنتج ترجمات مُوجّهة أو منقوصة، لا تعكس بالضرورة وجهة نظر المؤلف بشكل كامل وصادق.

لذلك، فإننا في مؤسستنا نتعهد بأن تكون ترجماتنا جسرًا آمنًا للمعرفة، لا يشوبه أي تحيز أو تلاعب، وأن يكون هدفنا الأساسي هو خدمة القارئ وتزويده بالمعلومة الصحيحة، دون توجيه أو فرض رؤى مسبقة. سنحرص على تقديم النصوص المترجمة بأمانة وموضوعية، تاركين للقارئ حرية الفهم والتفسير، وتكوين القناعات الخاصة به، بناءً على وعيه وفهمه الخاص. وسوف يقتصر تدخلنا على إضافة بعض الشروح أو المعلومات التي نرى أنها ضرورية لتقريب القارئ من المعنى المقصود، أو لتوضيح سياق النص، أو لإبراز بعض الجوانب الثقافية التي قد لا تكون مألوفة لديه، مع الحرص على عدم فرض أي رؤية أو رأي شخصي.

وبالمقابل، فإننا نؤكد أن تقديمنا لهذه الكتب لا يعني بالضرورة تبنينا أو موافقتنا على كل ما ورد فيها من آراء واستنتاجات، أو أننا نؤيد المؤلف في كل ما ذهب إليه من أفكار أو تصورات. قد نختلف مع المؤلف في بعض القضايا، أو نرى أن بعض أوصافه غير لائقة أو غير مقبولة، ولكننا نؤمن بحق القارئ في أن يرى النص كما هو، دون تعديل أو تلطيف، حتى يكون رأيه عن الكتاب والمؤلف مبنيًا على فهم كامل ووعي تام، وحتى لا نكون نحن الحكام على قيمة النص أو مصداقيته. وحتى نكون أكثر صراحة معكم.

إننا نعترف أن الترجمة هي عمل بشري، وأن المترجمين بشر معرضون للخطأ والسهو، وأن بعض النصوص قد لا تكون دقيقة، ولكننا في الوقت نفسه نؤكد أننا نبذل قصارى جهدنا لتقديم ترجمات عالية الجودة، وأننا نعتبر القارئ شريكًا لنا في هذه المسؤولية، ونرحب بأي ملاحظات أو تصحيحات منه، بل نشجعه على ذلك.

و لا يفوتنا أن ننبه القارئ إلى أن بعض المعلومات والاستنتاجات الواردة في هذه الكتب قد لا تعكس الحقائق العلمية أو التاريخية الراهنة، نظرًا للتطور المستمر للمعرفة والبحث العلمي. ونحن على ثقة بأن القارئ الواعي سيأخذ هذه النقطة في الاعتبار، وسيتعامل مع هذه الكتب بمنظور نقدي، وبما يخدم إثراء معارفه وتوسيع آفاقه. ففي نهاية المطاف، نؤمن بأن الترجمة هي رحلة مستمرة، لا تنتهي عند الوصول إلى الكلمات، بل تتعداها إلى فهم الأفكار، وتحقيق التواصل الحقيقي بين الثقافات، وتكوين رؤية أكثر شمولاً ووعياً للعالم من حولنا. وهي أيضاً مسؤولية عظيمة، نحملها على عاتقنا بكل ما أوتينا من جهد وإخلاص.

ونشكر الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية في تعاونها وحماسها للمساعدة في مشروعنا.

ملاحظات:

- فهرس المحتويات يشير الى صفحات هذه النسخة المترجمة.
- بعض الاسماء الواردة في الكتاب تحتاج مزيد من الضبط.
- أسلوب المؤلف أدبي ساخر؛ تهكمي، ومتعال.

الناشر

2025م

طرابلس الغرب وتونس

1892

تأليف

بول راديو

زيارة إلى بوفار وبيكوشيه على أنقاض قرطاج

المشهد الأول

المشهد: باريس، لدى السيد بابا-فريسكت، الذي يملك كشكًا في «ممر النخبة».

المؤلف (يؤدي التحية): يا سيدي بابا-فريسكت، يشرفني أن أُقدّم إليكم هذا الكتاب الذي أنهيتُ تأليفه للتو، وها أنا أُهديه إلى ألطف رجل في باريس.

بابا-فريسكت (لا يرد التحية): كلامك في محله تمامًا. فالناقد المُلحق بقسمي؛ هو شخص فريد حقًا. لديه طريقة لا تُخطئ في تقدير قيمة الروايات، القصائد، أدب الرحلات، وباختصار كل ما يتم طباعته، مستخدمًا في ذلك لمسة من علم الآشوريات. لكن لسوء الحظ، هو غائب الآن، وبدونه أشعر أنني ضائع... كرأس بلا أذنين. ومع ذلك، لِمَ لا تذهب أنت وتستشيره بنفسك؟ هو ليس بعيدًا... إنه في قرطاج، بالقرب من تونس، التي هي تحديدًا موضوع كتابك. وهو الذي يشرف على أبحاث بوفار وبيكوشيه، وهما قريبا فلوبير.

المؤلف: ماذا تقول؟ ألم يموتا؟

بابا-فريسكت: إطلاقًا! إنهما على قيد الحياة... وكُلّ همّهما هو «علم الأفريقيات»!

المؤلف: يا للهول! إذًا، يجب أن أُسرع إلى هناك... سأبحر هذا المساء لأحصل على رأي مساعدكم الجليل. ألا يمكنك أن تمنحني رسالة تعريف؟

بابا-فريسكت: لا حاجة لذلك يا عزيزي المؤلف، لا حاجة. فمساعدي، مثلي تمامًا: كلما زادت الرسميات في التقديم، تقلّ رغبتنا في قبول الزائر. «قسمي» لا يعترف بالمجاملات، بل يستند إلى أسس علمية راسخة.

المؤلف: ومع ذلك، أنا أعرف علماء... حسنًا، لن أُصرّ، سأغادر. هذا الناقد العبقري... ما هو عنوانه تحديدًا؟ في قرطاج، أليس كذلك؟ على الأنقاض؟... إنني متحمّس جدًا لمصافحته.

بابا-فريسكت: بل يمكنك أن تصافح منه أربع أيادٍ. فالوسائل لا تنقصه: إذا لم يكن له نفوذ واسع، فله بالتأكيد أذرع متعددة.

المؤلف: أربع أيادٍ؟ إذن هو عازف بيانو... أم أنه أيضًا ظاهرة جسدية؟ وداعًا سيدي فريسكت، لم أعد أحتمل هذا!...

بابا-فريسكت: وداعًا أيها المؤلف العزيز. لن أرد تحيتك، فأنت تعلم أن هذا ليس من عادات قسمي.

المشهد الثاني

حلق الوادي (بعد يومين)

المؤلف (فور نزوله من السفينة): لن أتوقف حتى في تونس. سأتوجه مسرعًا إلى تلال قرطاج مباشرة.

(يبدأ بالركض.)

لمحت الصهاريج... آه! هناك خيمة للمستكشفين... شيخان وقوران... لا بد أنه موجود معهما... ولكن يا له من زي غريب!

(يتقدم الشيخان لاستقباله. يضع بوفار خوذة من البرونز الأخضر، بينما يلف بيكوشيه جلد ثعبان مدبوغ حول عنقه كقلادة.)

المؤلف (محييًا إياهما): سادتي، لقد أتيت إليكما بنصيحة من السيد بابا-فريسكت من «ممر النخبة». بما أن مساعده متواجد عندكما،

اسمحا له على الأقل أن يسخّر القليل من علمه لصالحي. هذا كتاب أود أن أعرضه عليه.

بوفار: بالطبع! بكل سرور. أعطِ مخطوطتك لبيكوشيه، سيأخذها إليه ويخبره أن مؤلفًا يتوسّل حكمه.

المؤلف: «يتوسّل»، ربما في هذا بعض المبالغة.

بيكوشيه: سيدي، أي كلمة احترام تُقال في حقّه لا تكفي. فالتواضع أمامه دليل على الفطنة.

المؤلف (يسلّم حزمة الأوراق إلى بيكوشيه، الذي يأخذها): ولكن... ألن أراه عن قُرب؟

بوفار: حالاً، سيظهر الآن.

(تُسمع بعض الضوضاء خلف تلة صغيرة ينتصب عليها جزء من الأنقاض وعمود. يمسك بوفار بذراع المؤلف قائلاً): انظر، هل تراه! إنه يصعد درجات معبد سيريس، ليجلس في محكمته. اخلع قبعتك عند صدور الحكم.

المؤلف (يسقط إلى الوراء، وبوفار يمسكه): آه!...

(لقد لمح للتو حمارًا عادي الشكل ككل الحمير: له أذنان طويلتان وأربعة حوافر، متوسط الحجم، وخطمه بين عمرين، وأسنانه تشبه أسنان سيدة إنجليزية عجوز. يتقدم الحمار بخطى رباعية نحو حجر سيريس، كأكاديمي يتمايل بعباءته في موكب لتوزيع الجوائز.)

المؤلف (وقد استعاد رباطة جأشه قليلاً): ماذا! يا سادتي علماء الآثار، مَن هذا؟ هل تمزحان؟ لو كان هذا الزميل فظًا، لتقبّلت الأمر، لكن أن يكون حمارًا حقيقيًا؟...

بوفار (بجدية): ألا تعلم شيئًا؟ هذا المساعد؟ ألم يخبرك السيد بابا-فريسكت عن طبيعته؟... بالضبط يا سيدي، هنا تكمن المعجزة: فلكونه من فصيلة الحمير، فإنه يتفوق علينا جميعًا في الحس النقدي، وسعة الاطلاع، والذوق الرفيع. هل لديك لفافة؟

المؤلف: لفافة؟

بوفار: نعم، لفافة، بردية، أي شيء لفك رموزه؟

المؤلف: أرجو المعذرة، لكنني لا أحمل واحدة معي عادة.

بوفار: يا للأسف!

بيكوشيه (وقد عاد): لا يهم. ستقدر دقته المذهلة في الحكم بوسيلة أخرى. لقد أعطيته كتابك...

(تسقط ذراعا المؤلف مرة أخرى. يستغل الفرصة لمصافحة بوفار وبيكوشيه في فيض من المشاعر المبهمة.)

المؤلف: لكن في النهاية، من هو؟ أخبِراني. هل له اسم؟ هل تريدان أن أعاني آلام إلسا وهي تجهل حبيبها لوهينغرين؟

(جلس الحمار على مؤخرته، وبحافر متعالٍ يقلّب أوراق المخطوطة الممددة على حجر.)

بيكوشيه (بحماس): ستكون راضيًا... لدينا بضع دقائق قبل صدور الحكم... اسمه؟... اسمه «لو درين»، أي العلف، فالعلف هو مستقبل الجزائر!

المؤلف (مفكرًا): لو درين، علف؟ هل أنتما متأكدان؟ يبدو لي أن هذا الاسم يثير تفسيرات أعمق... ما رأيكما، على سبيل المثال، في الفعل الثلاثي «دَرِنَ»، أي أن يكون قذرًا ومقيتًا؟ أو «دَرَهَ»، أي يرفس ويشتم كعادة؟ يبدو لي هذا تأويلاً أجمل لاسم حمار...

بيكوشيه (بجفاء): سيدي المؤلف الحديث، اعلم أن عالم الآثار يفتخر بجهله باللغات الحية. نحن لا نعرف كلمة واحدة من العربية... لغة لها صحف ويتحدث بها الناس! تباً! اللغات المندثرة هي الأفضل! تلك التي تتجمع حروفها بفعل السنين، وتُهجأ دون أن تعطي معنى، كالآرامية والكنعانية والإثيوبية، وخصوصًا الآرامية الأشد قسوة. إنها فضيلة أجمل اللغات ألا يمكن التحدث بها أو فهمها... لكن صه! سيصدر حكمه الآن.

(نهض سليمان ذو الأذنين الطويلتين وأطلق نهيقًا فرحًا «هي هون، هي

هون» وهو يتجول بعين مرحة. فجأة يقفز، ويرفس، ويتمايل، ثم يختفي خلف معبد سيريس. يندفع بوفار وبيكوشيه خلفه... ثم يعودان على الفور، وعيناهما دامعتان.)

بيكوشيه: مسكين «لو درين»! إنه الربيع، إنها الشهوة... لا يمكننا إيقافه.. سيموت من ذلك!

بوفار: لا يا بيكوشيه، لا يموت المرء من ذلك، لكنه يعاني... تذكريا ميلي... هذا خطؤك؛ كان يجب أن ترى تلك الأتان وتطردها.

بيكوشيه (بتواضع وتفكير): هكذا استنفد الإسكندر الأكبر عبقريته... عبقريته. آه! الشهوة لعالم الآثار، لا تصلح لشيء.

(يعود الحمار. «يمكن للمرء أن يكون حزينًا»، قال لوكريتيوس...، عند عودته: بل هو صارم؛ رأسه منخفض، عينه متسعة، أذنه مرتخية. بعد عدة نهيقات «هي هون، هون»، ينظر إلى المخطوطة وينطق أخيرًا بهذه الكلمات):

لو درين: ما هذا، تونس؟ أعرف هذا الاسم بشكل غامض. مدينة حديثة أخرى؟ كومة من الأشياء الحية والراهنة. لا يمكن كتابة سوى كتاب بائس عنها. إنه تساهل مخيف. الأفضل أن تكتب رسالة عن «لو با-مودون».

المؤلف (يعبس، ثم يتذكر أنها قاعدة في كشك بابا-فريسكت ألا يكون مهذبًا): لكن في النهاية، سادتي، أتوسل إليكم، أخبروني. لقد أصبحت كئيبًا وسط كل هذه الأعاجيب. من هو هذا القاضي العظيم؟ من أين؟

بوفار (يغمز للمؤلف، مبتسمًا): اعترف أولاً أن هذه الإشارة إلى «لو با-مودون» ذكية جدًا.

(يخطو بضع خطوات ويتأمل.)

بوفار: قصته؟ آه! آه! إنها معجزة، قصته! استمع جيدًا... يحيط لغز عميق بولادته. من أي بلد؟ لا أحد يعرف. لكن في سن الرابعة، وُجد يتجول في سهول بلاد ما بين النهرين وكان يتمتع بالفعل بالقدرة على

الكلام البشري. الآباء الموقرون في بلاد ما بين النهرين، مندهشين من هذه الموهبة النادرة، أرادوا أن يجعلوا من «لو درين» حمارًا كنسيًا، باختصار حمارًا قديسًا. نما في الحكمة وتعلم الآشوريات، يرعى العشب، ويمتص من جانبه نقوش الشواهد والألواح، لأنه كان يحك نفسه بها باستمرار، وكان يستحضر الزمن الذي كان فيه الحميريون يكتبون برؤوس المسامير... بقي في هذه المدرسة الدينية لمدة عام... لكن في الربيع الثاني... ماذا أقول لك؟ أفترض أنك لست من أولئك الذين ما زالوا يخلطون بين الكباش والخراف؟... باختصار، لقد أثار فضيحة للآباء الموقرين في بلاد ما بين النهرين بعنف سلوكه التكاثري... كان يُرى هنا وهناك في وضعية... يا سيدي. لكنني لن أصر.

المؤلف: نعم، أفهم. إنه المثل القديم، الذي تم تمثيله للتو:

ASINUS ASINAM AFRICAT. (الأتان تتبع الحمار)

(الحمار «لو درين» يضع قدميه الأماميتين على المخطوطة وينطق حرفيًا):

لو درين: تونس لها منظر طبيعي تاريخي. عندما لا يكون المرء متشبعًا بفكر قرطاج، ولا يستطيع أن يحيي في مخيلته، شعب حنبعل القديم، لا يجب أن يأخذ الإطار الذي عاش فيه البونيقيون.

المؤلف: اسمعوا، سادتي، أنا أتصالح، أنا أسجد... كان سليمان مجرد ملك حكيم، «لو درين» سيكون وثنًا.

(يلتفت نحو الحمار.)

المؤلف: إذن أنت تدعي، سيدي عالم الآشوريات، أن القرطاجيين كانوا يعيشون في إطار. ليكن. هذا يثبت أنهم كانوا يحبون التباهي أكثر منا. لكن إذن أقترح عليك لغزًا... هل تعلم إذا كان، بالقرب من الإطار، لا يزال هناك أثر للصورة؟ آه! آه! لنرَ!... حسنًا، «لا غوليت» (حلق الوادي)، يا سيدي، ليست سوى بقايا »مارغوليت»، أي وجه، لأن قرطاج، محصورة في إطارها، كانت تتأمل نفسها في البحر. وحشية العصور الوسطى لم تفهم

هذه الكلمة البونيقية؛ لقد ترجمتها بـ «بحر الحلق»، وهو أمر غير لائق عند الحديث عن وجه تاريخي.

لو درين: هذا الاشتقاق يكاد يكون مثاليًا؛ أنا أتبناه. في رأيي، هذا هو أفضل ما كان يمكن وضعه في كتابك السيئ. لكن، دورك الآن، خمن... هل تعرف من أين اشتق اسما بوفاروبيكوشيه؟

المؤلف: من أين؟ لكن... من فرنسا، أعتقد، من روان مرورًا بفلوبير...

لو درين: إطلاقًا!... إنهما يغوصان بجذورهما في السامية. «بيكوشيه» يجب أن تُقرأ »بيكوشا»، أو »مع الفرن»، لأنه بدوني كانت كل حفرياته تفشل، و»بوفار» تعني »بو-فرد»، »الرجل الوحيد»، لأنه غير متزوج...

بوفاروبيكوشيه (معًا): هاه؟! المرء يبقى مبهورًا! لكن بما أنك تقدر علم الأسماء، انتظر، سيخبرك ببعض الأسماء التدمرية. (إلى الحمار): اقترب، يا صديقي القديم، تعال لنهنئك. كم نحبك، يا «درين» الصغير! اقرأ علينا أسماءك التدمرية.

المؤلف: هل هو مونولوج؟

بيكوشيه: لو سمعه كوكلان، لما أراد غيره. استحضار لأزمنة السلوقيين، مرثاة من آشور!

(غادر «لو درين» حجر معبد سيريس. بعد بضع قفزات، يجلس على مؤخرته ويستعرض.)

لو درين: ليشماش، ابن ليشماش، ابن ثيبول، أي هليودوروس...

بوفار: آه! أنا أعرف هؤلاء. بينما يخبرك بهم، سأقوم بحفرية في المكان الذي كان جالسًا فيه. أشك في وجود شيء ما تحته...

المؤلف: هل لديه مؤخرة مسحورة؟

بوفار: أفضل من ذلك، إنها ثاقبة، لديها قدرة على التنبؤ! سأحفر وأعود.

لو درين (مستمرًا): ابن زبديبول وأبو زاريبولا، رفابول، عبديكو، أذينة. أنوبات، ابنة ديسيس... من المحتمل جدًا أنه في كسر الحجر كان

هناك حرف «جيميل».

المستمعون: لا يهم، «لودرين»، أكمل...

لودرين: بيفيلوس الذي لعب دور بروستات اللامع، ابن أرسووأبو بلشور، الذي يعني «بل هوسوري»، ديمي-رابوتي أو«ثمن سيادتي»، ابن أغليبول، إله القمر، وأبوسباسينو-خاراكس الذي تزوج زنوبيا وحكم في تدمر.

بيكوشيه (يشهد على صدره بجلد الثعبان): آه! إنه جميل وعميق القرون!... من هو المتكبر الذي يتباهى بإيجاد معناه؟ أنا نفسي، لا أزال أستطيع تكرارها فقط بمساعدة وسيلة تذكر حقيرة... ليش-ميش، ابن ليش-ميش، ابن جيبول وفاريبول، ريف-أ-بول، أ-بتي-سو، ديمي-رابروتي، الذي كان لديه «جيميل» على الأرجح في الكسر، ابن أون-بو-فيلوس، وأبو باسين-أو-كاركاس، إله القمر الذي تزوج تدمروحكم في زنوبيا...

لودرين (يتنهد وينهق): كيف أن فن التذكر يشوه ويضع معنى لأجمل النقوش! يا للأسف، جهل الأساسيات!

بيكوشيه (من بعيد، يسحب شيئًا ما): انتصار! لقد وجدته.

(يُخرج نوعًا من القدر): إنه وعاء القرابين لسيريس!

لودرين (يأتي راكضًا. يفحصه وينطق بجدية): إنه المرجل الذي كان حنبعل يجري فيه تجارب الخل، أقسم!

بيكوشيه: تجارب الخل؟...

بوفار: نعم، لإذابة جبال الألب وفتح ممرات فيها.

بوفاروبيكوشيه (معًا، بحماس): الآن يمكننا العودة إلى باريس. لقد أصبحنا مشهورين إلى الأبد. يجب أن يستقبلنا متحف اللوفربانتصار...

المؤلف (يبحث): ومخطوطتي؟ ألم تسقطها، سيدي بوفار، في الحفرة أثناء استخراج هذا الإناء الشهير!

لودرين (بركلة): ها هي مخطوطتك. (يبدأ بالرقص فوقها وهويغني «هي هون، هي هون، هرون»): لنكن وحشيين، لنكن وحشيين، ولكن ليس

بدون أناقة... غنانس.

بيكوشيه (يرفع القدر): أوف! إنه ثقيل.

بوفار: انتظر، سأساعدك... (ينظر بعيدًا): لكن... ألمح هناك... أليس هذا مرة أخرى ذلك الجاسوس اللعين للباي الذي أزعجنا بسبب استخراج ثعبان سلامبو؟ إنه يراقبنا...

المؤلف وبيكوشيه (ينظران بدورهما): لكن لا، إنه... يا للهول، نعم! المونسنيور لافيجري!

المشهد الثالث

المونسنيور لافيجري: سادتي، لقد أبلغني أحد خدامنا أنكم، من بين اكتشافات أخرى مثيرة للاهتمام، وجدتم للتو قدر إخوتي المسلحين في الصحراء. لقد نقلته عاصفة رملية عنيفة إلى هنا. رآه السكان وهو يمر، لكن منذ ذلك الحين فقدنا أثره. الحمد لله! إن إخوتنا المسلحين فقراء جدًا! بعد هذا الحادث، سادتي، كانوا مضطرين لطهي الحساء في فوهات بنادقهم، وهو أمر مزعج جدًا حتى لأناس معتدلين.

بيكوشيه: اسمح لي أن ألاحظ باحترام، يا صاحب السيادة، أن هذا القدر يعود إلى منزل حنبعل.

لو درين (مقاطعًا): ماذا؟ لن تتحدث معه بهذه النبرة، أليس كذلك؟ رئيس أساقفة؟ لا نريد المزيد منهم! لقد قلت ذلك ذات مرة في «فولتير». رجال دين؟ لا نريد المزيد منهم! طلاب مدارس دينية في بلاد ما بين النهرين؟ لا نريد المزيد منهم! اذهب أيها الأسقف، استدروا وانصرف... هذا القدر كان ملكًا لحنبعل... لن تأخذ ممتلكات علم الآثار! أنا من جلست عليه... لقد شممت رائحته...

المؤلف: هذه المرة يمكن القول إن لديه حاسة في الأمام والخلف.

المونسنيور لافيجري (يبكي): إخوتنا المساكين! في ماذا سيأكلون الآن؟ (يبتعد.)

المونسنيور لافيجري: سيضطرون إلى مهاجمة القوافل للحصول على آخر!

المؤلف (يقترب. يحمل تحت ذراعه مخطوطته الملطخة والمكرمشة): سادتي، أودعكم؛ وداعًا. ألمح الباخرة التي ستدخل الميناء، على أمواج «مار-غوليت». كانت هذه الرحلة مفيدة لي، حيث رأيتكم محاطين بالعديد من الذكريات البونيقية. وصلت كمتهم أدبي، وأغادر مدانًا من قبل مساعد السيد فريسكت الذي لا يرحم. سيتعرف بلا شك على هذه الورقة المكرمشة على الآثار الموقعة من نقده.

لو درين (مندفعًا): لم يصبح المخطوط جاهزًا بعد! أعطني إياه، لأبصق عليه. قد يعتقد السيد بابا-فريسكت أن ازدرائي للحديث قد ضعف. بدون خشونة، كما ترى، لا يوجد كتب جيدة.

(يهرب المؤلف جانبًا. ينظر بيكوشيه بمنظاره.)

بيكوشيه (صارخًا): نعم، إنها هي، المغنية الشهيرة! لأول مرة في تونس! إذن كل شيء يتضافر للاحتفال بانتصاراتنا! عاشت «لا تورين»! عاشت روزيتا موري!

المشهد الرابع

روزيتا موري (القائدة، ملتزمة بواجبها على جسر السفينة، في تنورة من الشاش، لا تبدو وكأنها تفهم هذه الهتافات. يُسمع بوضوح وهي تعطي الأوامر): ألقِ المرساة!

(تسقط المرساة.)

(يمسك بوفار بمكبر صوت، يحييها ويتفاوض معها، بينما بيكوشيه يرفع على تلة عمودًا، ويشير للطاقم، بمناديل ملونة، أن يرسلوا له قاربًا لأخذ الكنوز المستخرجة من الحفريات.)

لو درين (على موقع حمامات ديدون. يسحب بقوة قطعة من الجلد): بأغليبول، ببيفيلوس، سأحصل عليها!..

(يحاول بوفار وبيكوشيه إقناعه بالصعود معهم. يقاوم «لو درين». يحملانه بين أذرعهم ويأخذانه إلى القارب، لكن فكّه لا يزال يمسك بشريط الجلد الذي يخرج من الأرض، ويمتد إلى ما لا نهاية.)

بوفار، بيكوشيه، المؤلف (في القارب): ما الذي يمكن أن يكون هذا؟

(يجدفون. يرسون بجانب «لا تورين». الشيء الذي يمسكه بفكيه لا يتوقف عن الامتداد.)

لو درين (يُرفع إلى سطح السفينة): يا للهول، إنه جلد الثور التاريخي الذي حددت به ديدون محيط قرطاج. اكتشاف رائع! ويا لها من محافظة!

بيكوشيه، بوفار: آه! آه!

المؤلف (يلقي مخطوطته في الماء): الويل لي! أفضل ألا تكون تونس موجودة، بما أن قرطاج تحيا بالكامل.

لو درين (على سطح السفينة. يقوم بجولات): لنكن وحشيين، ولكن ليس بدون أناقة، غان... آنس...

(يقترب من اللوحات على مقدمة السفينة ويقرأ: TOURAINE.)

لو درين: ما هي «تورين»؟ هذا مبتذل. لنمحُها.

(يكشط بأسنانه، ثم يأخذ فرشاة من وعاء طلاء موجود هناك، يضعها في ثنية ركبته اليمنى ويرسم: TOUR-AHANA.)

لو درين: هذا أفضل! هناك معنى سامي الآن: TOUR-AHANA. وكأنك تقول »ثور الانحطاط«.

روزيتا موري (تراه من جسر السفينة): كيف؟ ماذا يفعل هذا الحيوان؟ لا أريد أن يتم تشويه باخرتي، أنا، لا. ليُجعل عاجزًا!

المؤلف: لن يكون ذلك سهلاً، يا آنسة. لقد حاولوا بالفعل في بلاد ما بين النهرين.

(يندفع البحارة نحو الحمار المذنب، ويربطونه بحزام ديدون، عند قاعدة صاري المقدمة.)

لو درين (يبكي): هي هون هي هي هون.

روزيتا موري (ترى بين الأمتعة مرجل تجارب حنبعل): ليُغطى رأسه بهذا القدر.

(يستمر في النهيق. تتعطل حركة الرافعات البخارية.)

(يحتج بوفاروبيكوشيه، ولكن يُعرض عليهما لائحة السفن العابرة للمحيطات.)

المشهد الخامس

روزيتا موري: أسرعوا! أشعر بالملل في هذا الميناء، أريد أن أغادر.

(تتثاءب. والركاب، الذين جلبهم القارب، يسارعون إلى الصعود. يقتربون من «لو درين»، ثابتًا ومربوطًا.)

عدة ركاب: انظروا؟ ما هذا؟ يبدو كحيوان، إنه دافئ.

الابن الثاني والسبعون للباي (قادمًا إلى فرنسا، لاجتياز البكالوريا المختصرة): لا بد أنها تعاني كثيرًا لأنها بهذا الشكل!

مدير متحف باردو: لقد رأيت ذات مرة، في جبال روكي، هيكل عظمي لحيوان من عصور ما قبل التاريخ لا يختلف كثيرًا، الأتلانتيسورس، طوله 24 مترًا، وكان لا بد من تقييده، لأنه، ولكونه هيكلًا عظميًا، كان لا يزال يدافع عن نفسه.

المؤلف (يحيي): ألن يكون بالأحرى، يا سيدي، القملة العملاقة ذات الخرطوم الطويل، Pedis insatiabilis؟ انظر إلى هذا اللون الرمادي...

المدير العالم: في هذه الحالة، أميل إلى الاعتقاد بأنه طائر، «الكويستر» ذو الريش المتعرج... لكن من الأفضل أن يشك العلم دون أن يجزم... مهلاً، يبدو أن قدمه مزينة، pes decoratus؟

المؤلف: ذلك لأنه عرف كيف يقف على ساق واحدة، pes ornatissimus.

روزيتا موري (بصوت واضح، على جسر السفينة): هل أنتم جاهزون، يا أهل الجانب الأيمن، يا أهل الجانب الأيسر؟ هل $99,000$ حصان

لدينا تحت الضغط؟ الجميع إلى الرافعة! أدروا...وا!

(ترتفع المرساة. تبدأ «لا تورين» في التحرك. في تلك اللحظة، تدوي صافرة.)

روزيتا موري: توقفوا!

الضابط الثاني للسفينة: آنسة، القارب يعود بأقصى سرعة. لقد نسينا بعض الركاب.

(يلقي البحارة سلم الحبال المتدلي فوق جانب السفينة، وينزل أحدهم ليدعم):

قداسة البابا (أسود من الشمس، لاهثًا، يتصبب عرقًا، مرفقاه ممزقان، في زي مستكشف): آه! سادتي، يا لها من رحلة! يا لها من حرارة! لقد وصلت من بحيرة تشاد. زرت تسعًا وستين قبيلة من الطوارق، أبحث عن الرسالة البابوية التي يجب أن أكتبها... لا شيء! عقم. يا لها من مشقة، يا رب! (يرى روزيتا.) انظروا، نجمة ساحرة... وهي قبطان؟ يا للعجب! لكنني سأكتب رسالة بابوية صغيرة حول هذا الموضوع!...

روزيتا موري (بصرامة): أيها الأب الأقدس، يرجى الصعود، من أجلي، إلى قمة صاري المقدمة. لا يجب أن يحدث أي شيء غير طبيعي على متن سفينتي؛ لن أسمح بذلك. منذ أن دخلت البحرية، أعرف كيف أجعل التقاليد تُحترم.

(يصعد قداسته في الحبال ويستقر على قمة الصاري.)

روزيتا موري: الآن، أيها الأب الأقدس، خذ منظارك البحري وراقب الأفق، كما لو كان المستقبل. ستعتمد سلامة السفينة على يقظة عينك... لقد وعدني أمبرواز توماس بأنه سيبحر مع جميع طلاب المعهد الموسيقي على سفينته «العاصفة»، ليثبت للبرجوازيين الواقعيين وذوي النوايا السيئة أن هذه السفينة تبحر في البحر مثل أي سفينة أخرى.

الركاب والطاقم: هورا!

روزيتا موري (للضابط الثاني): في الأفق، هناك... شيء... نعم، أتعرف

على أشرعته... إنه السيد توماس.

الركاب، الطاقم: هورا! هورا!

قداسة البابا (يوجه منظاره البحري بجهود خارقة): أين؟ لا أرى شيئًا... آه! في زمني، كانت السفن تظهر بشكل أفضل! اليوم... على أي حال كل ما هو جديد غير مفهوم.

روزيتا موري: انزل، أيها الأب الأقدس، لا فائدة الآن؛ نحن نتبعه بالعين. أميز ملامح كاليبان...

قداسة البابا (بسرعة): انتظروا! أنا أراه أيضًا...

(يصوب البابا منظاره البحري على خنزير بحر يقوم بحركات مختلفة.)

قداسة البابا: انتبهوا! إنه قادم نحونا... حذار من الاصطدام! يا له من أمبرواز توماس قاسٍ! لقد هلكنا... النجاة لمن استطاع!

(يُغمى عليه. يستقبله البحارة بين أذرعهم ويشرحون له أنه كان خنزير بحر، غطس تحت «لا تورين».)

قداسة البابا (يستعيد وعيه شيئًا فشيئًا): آه! ها هي الرسالة البابوية التي يجب كتابتها: «العاصفة» مجسدة بأمبرواز توماس تخرج من «الهدوء» مجسدًا بخنزير البحر... وكخاتمة رمزية، روزيتا، القائدة، تهذب كاليبان، وحش تشاد، مهزومًا من قبل جوقات المعهد الموسيقي. ها هي رسالتي البابوية!

لو درين (تحت القدر): يبدو قديمًا بما فيه الكفاية... لو اقترحته، على الرغم من كونه بابا، على السيد فريسكت لرئاسة الرواية الحديثة؟... أما أنا، فسأحتفظ بالشعر.

المشهد السادس

ترسو سفينة «العاصفة»، بقيادة السيد أمبرواز توماس، بجانب «لا تورين». يلقي طلاب المعهد الموسيقي بأنفسهم عند أقدام قداسته ويبجّلونه.

قداسة البابا: آه! يا عزيزاتي الصغيرات، يا أعزائي الصغار، يا لها من رسالة بابوية، أقصد يا لها من رحلة!

لودرين (تحت القدر): أختنق، أنا جائع... يا صاحبة السفينة، هناك في الأعلى، على الشرفة، أليس هذا وقت العلف؟

الابن الثاني والسبعون للباي: لقد تحدّث أحدهم من تحت... هذا القدر قد تكلّم.

لو درين (بصوت مكتوم): آه! عندما أعود إلى متحف اللوفر، سأبيدهم، الراقصات، الموسيقيين، المعهد الموسيقي، رجال الأدب والصحفيين، الذين لا يتعرفون على عالم آشوري مكبّل. سأثبت أن «جورنال دي ديبا» مكتوب بلغة الكاناك، وأن السيد رينان نسخ «حياة يسوع» من مخطوطة لتشنغ-كي-تونغ... عندما أكون في اللوفر، سيرون! لو كنت فقط في اللوفر!...

الابن الثاني والسبعون للباي: اللوفر، اللوفر؟... أعرف هذا... إنه في برنامجي... آه! (يخطب):

> والحرس الذي يسهر على بوابات اللوفر/ لا يدافع عن إوزه...

لودرين (كئيبًا): في باريس، سأواصل الحفريات عند بابا-فريسكت. أريد أن أكتشف في عيون الروائيين عوارض هيكل سليمان!...

(تبحر «لا تورين» و«العاصفة» معًا نحو مرسيليا.)

(يصبح «الإطار الذي عاش فيه البونيقيون» بعيدًا جدًا بالفعل.)

طرابلس الغرب

على ساحل منخفض تتدفق عليه أمواج بحر سرت المتمددة في اضطراب، لا تكاد تظهر بيضاء فوق الرمال الحمراء، وأمام خلفية من أشجار النخيل الكثيفة التي لا تبدو خضراء إلا عن قرب، تتراءى طرابلس الغرب. تظهر المدينة بأناقة مآذنها الثماني ذات القبعات الخضراء، وضخامة قلعتها التركية وأسوارها القديمة المشيدة في الماء، وجاذبية مياه مينائها الصغير الهادئة، ورهبة حصونها الحديثة، وبوارجها الراسية، وخاصة حراستها من الشعاب المرجانية التي لا يُجازف أحد بعبورها دون مرشد. تفاجئ طرابلس البربرية المتلقي وتتضخم في الذهن كعاصمة منفية في بقعة قاحلة.

لكن بمجرد الوصول إلى الشاطئ، يغيب أي أثر للأناقة أو الجلال. ولا يخطر على البال حتى افتقادهما، أمام الموظفين الأتراك ذوي النظارات الكبيرة والبشرة الشاحبة الذين يحكمون الجمارك، والحشود الصاخبة من بائعي الأسماك الإيطاليين، وحمالي التجارة، والزنوج مفرغي الفحم الذين يدندنون أثناء عملهم المضني، والشباب الشوام المهذبين للغاية، الذين يرتدون الطربوش والسترات الضيقة، والذين يعرضون خدماتهم «تحت تصرفك بالكامل» ويزعجونك بتحياتهم المبالغ فيها التي تبدأ من الجبين وتنتهي بإشارة غير لائقة. قبل عبور الرصيف الضيق الذي يتزاحم فيه هذا الجمع بين الشاطئ وباب المدينة، تكون قد نسيت بالفعل الوعود التي قطعتها لك المدينة الشرقية من بعيد، في البحر. الباب مزدحم بالجنود

الحراس، الذين تلمع أسلحتهم على الرفوف، تحت القوس. الشوارع التي تتوزع أمام العين قبيحة وبلا ملامح، بأسلوب عربي متأثر بأبسط البنائين الإيطاليين، بأبواب مقوسة، مغلقة بإحكام، وسط جدران هزيلة ترتفع هنا وهناك إلى طابق ثانٍ، وأقواس قليلة الفائدة ممتدة عبر الأزقة، - مزيج من التخطيط والأشكال والمظاهر لا يبرز منه أي تقليد أصيل: القليل من الطراز التركي في المساجد، والكثير في المنشآت العسكرية؛ القليل من الطراز العربي في الشوارع المرتفعة التي يسكنها اليهود؛ محاولات لواجهات وتنسيقات أوروبية، محصورة بين أسوار قاعدتها، ذات البناء الضخم، القديمة، ووسطها من العصور الوسطى، وقمّتها حديثة. تتجلى طرابلس شيئًا فشيئًا كمستودع واسع يدافع عنه معسكر، مدينة تماس حيث تلتقي أعراق مختلفة، وتتراكب تقاليدها وتتسامح مع بعضها البعض دون أن تتآلف.

بالتأكيد لا يوجد لدى الطرابلسي مهنة أكثر شرفًا من التجارة. ومع ذلك، عند التجول في الشوارع، لن يخطر ببالك أنها نشطة للغاية. فباستثناء بعض واجهات عرض الفاكهة وبعض المتاجر الصغيرة التي تبيع الأدوات الضرورية، لا يعرض أي متجر تلك الأشياء الشهيرة التي يتحدث عنها تجار تونس باحترام، مثل ريش النعام، العاج، ومسحوق الذهب. بل يتم تكديسها في أقبية كئيبة ذات أبواب مغلقة دائمًا حيث يضعها كبار التجار. لا بد أنه لا تزال هناك تجارة كبيرة في الأقمشة والمواد الغذائية، لأنك تصادف باستمرار عمالًا يحملون بالات ملفوفة بالقماش، اثنان اثنان. طريقة حملهم، غير المعتادة على سواحل أفريقيا، تعلموها بلا شك من الزنوج الأمريكيين: يمر قضيب صلب من كتف أحدهم إلى كتف الآخر، يتدلى من وسطه حبال مثبتة على كفة ميزان؛ على هذا توضع البالات: وهي تتحرك، تتأرجح بالقرب من الأرض، بين الرجلين، اللذين لا يخشيا الاحتفاظ، لهذا العمل الشاق، بصدريتهما المشقوقة في الظهر، والمطرزة بلون فاتح. يُصادف هؤلاء الحمالون بشكل خاص في الجزء السفلي من

المدينة، بالقرب من بوابة البحر. هناك توجد متاجر التجارة الكبرى، إما في شارع قوس النصر، أو في شارع آخر، يطل على البحر ومنازله، ويسكن بعضها قناصل، وتعتبر رائعة: منازل إقليمية متوسطة ذات أروقة كئيبة، لا ترى الميناء إلا من الطوابق العليا، حيث أن جميع الطوابق الأرضية محجوبة بالسياج، بحيث يسمع الفرسان والمشاة الذين يسيرون على طول هذا الخندق المترب، خرير الأمواج دون أن يروها.

خلفها، تمتد الأحياء الخالية من المتاجر، بجدران بيضاء، أبواب منخفضة، ومنازل بلا نوافذ لا يميزها شيء عن الجدران، لكنها لا تملك انتظام أو مظهر النظافة البرجوازي للشوارع المنعزلة في تونس. الشارع الذي يصعد إلى الحي اليهودي، يجر في مجراه المائي، حتى في أوقات الجفاف، وحلاً أسود، لزجًا بقشور الأسماك وفضلات الخضروات، حيث يتخبط سكان قذرون، يهود حفاة الأقدام، وجوههم صفراء من القذارة، وعيونهم الحمراء من الرمد تنفتح كالجروح. المنازل اليهودية مغلقة بعناية أقل من المنازل المسلمة. لذلك يمكن رؤية، من خلال الأبواب، نساء، جميلات في الغالب، مزينات بأوشحة حريرية ومجوهرات ذهبية، يكنسن الفناء أو يطبخن فيه، محاطات بأطفال جميلين يزحفون على الأرض. عندما تصل إلى أطراف المدينة، لا تجد أمام المنازل سوى السور المليء بالأنقاض المنهارة والتجاويف عند قاعدته. هذا هو الجزء المرتفع من طرابلس، الواقع في الجنوب. بجانب العائلات اليهودية، وبنفس الزينة المتواضعة، ترى نساء أخريات يجلسن تحت أبواب منخفضة، يطلقن عليك نظرة عابرة بلا ابتسامة، نظرة شهوانية شرسة تنطلق من بين رموش مطلية، زنجيات يمكن تخيل أجسادهن عارية تحت قطنية وردية ناعمة، ينمن في شمس الصباح، ممددات عبر الدرجات؛ مولّدات أقل وحشية في الملامح، لكن أقل نعومة في البشرة؛ يهوديات صغيرات جدًا، شاحبات ومنهكات من التعب، يبدأن عملهن تحت حماية أمهاتهن، آلهة جادة محاطة بالمجوهرات. بعضهن لديهن أطفال زنوج ينامون على حصر، يمتصهم الذباب. هؤلاء

هن «القحاب»، المومسات. وجناتهن وذقونهن الملطخة بمسحوق أحمر عنيف، وعيونهن المخيفة من اللمعان، وخاصة جباههن اللامعة، المرصعة برقائق من الصفيح، زرقاء، خضراء أو صفراء، بحجم السنتيم، والتي يلصقنها بقطرة من الشمع، تعطي وجوههن السمينة كعجلات غير مبالية مظهر حوريات جهنميات مستعدات لحب جسدي. ومع ذلك، فهن بطبيعتهن هادئات ومحبات، يتعلقن بسهولة، ولديهن أطفال، ويتصرفن بلياقة، دون تكلف أو أغاني بذيئة، جالسات على الحصيرة تحت ظل بابهن، بين شمسين، شمس الشارع والشمس التي تسقط من الخلف في فنائهن الصغير. يسمحن لأنفسهن فقط بتدخين السجائر، عندما يستيقظن. في الصباح، يأتي جنود أتراك، بلا نقود، ليجلسوا القرفصاء أمامهن، عند ظل السور، ويكتفون بالنظر إليهن. لقد صادفت كثيرًا، في هذا الحي، الشاب الشامي، بسترة على الموضة، الذي يتوارى بشكل مخزٍ ضد الجدار ليتركني أمر وأحييه باحترام متملق: يده تلمس جبهته أولاً، ثم تسقط منخفضة جدًا، على البطن، متجاوزة القلب: «إذا احتجت أي شيء... أنا في خدمتك...».

الجزء العربي الفقير من المدينة مغلق تمامًا، بلا مارة، لا شيء سوى جدران وأبواب مغلقة؛ الأطفال الذين يصرخون باستمرار خلف هذه الجدران الغامضة يوحون بفكرة كائنات محتجزة تُذبح. والمنازل اليهودية التي ذكرناها للتو، وحدها المتحركة، وحدها التي تضفي حيوية على هذه الأحياء النائمة، وتحتل مكانة كبيرة في الانطباع العام؛ يعتقد المرء أنه لم يرَ سواها، وتبدو المنازل المسلمة الحزينة قليلة العدد، على الرغم من أن الأمر ليس كذلك. على جدران هذه الشوارع المهجورة والأجزاء المرممة من السور، يستمتع الأطفال أو الجنود - لا أعرف (ولكن أليس كل جندي كائنًا يميل إلى الطفولة؟) - باستمرار برسم أعداد كبيرة من السفن التي ينبعث منها الدخان أو ذات الأشرعة الكاملة، بأبعاد أنيقة ومصورة بمهارة فائقة - حاجة لترجمة عاطفة جديدة لدى جنود قادمين من مقاطعات

تركيا الداخلية، دعوة صامتة للسفينة التي ستعيدهم، أو مجرد ألعاب أطفال طرابلس؛ على أي حال، هذا الأسطول يمتع العين. وكم يكشف عن براءة، وتربية متفوقة، عندما نفكر في الرسوم الكاريكاتورية والكلمات البذيئة التي يلطخ بها أطفال أوروبا الجدران! كثيرًا ما نرى في أحد هذه الشوارع الميتة والبيضاء، واجهة مدخنة لفرن خبز. الخبازون، زنوج في الغالب، يعملون هنا في الهواء الطلق. من الصباح إلى المساء نراهم أمام فم فرنهم، الذي يفتح في الشارع نفسه، على رواق مقوس، أسود من السخام. عندما يضعون الخبز في الفرن، يقطع مقبض المجرفة الشارع ويوقف المارة. ينامون على الفحم في انتظار نضج الخبز، أو يأتي زنوج آخرون، أصدقاؤهم، ليجلسوا بجانبهم في السخام ويشكلون دائرة للمحادثة: لا يوجد شيء أبيض تحت الرواق سوى العيون والأسنان. لكن عندما يخرجون الخبز، تأخذ الأرغفة الصغيرة المستديرة، التي تُغسل على الفور بماء الزعفران، اللون الأصفر للهب وتنبعث منها رائحة باهتة من بخار الزعفران.

يُجلب معظم هذه الأرغفة أمام الترسانة، بجانب الأسواق والشارع الذي يبيع بالتجزئة، لبيعها للجنود. كم تختلف هذه الأسواق الطرابلسية عن أسواق تونس! أنفاق مظلمة حيث يبدو التجار، في أكشاكهم، كوحوش كاسرة تتربص، وأرضيتها الرطبة مليئة بالحفر. جموع الجنود التي تمر في ساعات معينة في هذه الأسواق الضيقة، المصممة للمارة القلائل، تثير الدهشة. نفهم أن حركة حديثة بالكامل قد فُرضت على طرابلس القديمة، النائمة في الماضي. لون وقصة زيهم العسكري جديدان، وسيوفهم وبنادقهم وحرابهم جديدة أيضًا، لكن مشيتهم كفلاحين أحرار، وسلوكهم غير المنضبط، وخاصة ازدراءهم للمظهر، وكل الأكواع والركب الممزقة - تشير إلى رجال عنيدين في تخلفهم، - مثل تلك الساعة التي تدق بانتظام الساعات التركية أمام باب الترسانة، فوق برج صغير من الجص الملون بالأزرق، والتي، باختلافها عن ساعاتنا بست ساعات وثلاثة أرباع،

تبدو وكأنها تفكك آلياتها وهي تبحث عن «الظهيرة في الساعة الرابعة عشرة».

الفرنسيون، وأعتقد عدة شعوب أوروبية أخرى، يفهمون كلمة «واحة» على أنها غابة من النخيل مليئة بالظل والينابيع التي تُصادفك فجأة، كاستراحة، وسط قحط الرمال. ولسوء الحظ، العرب الذين تُنطق أمامهم هذه الكلمة، لا يعرفون ما تعنيه. ويشيرون إلى غابات النخيل الخاصة بهم ببساطة بـ: «الجنائن». وهناك ضابط تركي سألته كيف يسمي أهل طرابلس واحتهم، أجابني (بالنطق التركي) «سانيه»، بينما يسمون «باديه» الصحراء الرملية التي تُصادف بعدها. مهما كان الأمر، فإن فكرتنا عن الواحة تجد هنا تطبيقها المثالي؛ لا نرى في أي مكان آخر غابة نخيل تنتهي بخط واضح أمام بحر من الرمال. منظر واحة طرابلس من الأعلى له شكل عام كمنجل، يقع طرفه في البحر، إلى الغرب، وينحني في الوسط ليفسح المجال للمدينة، ويستقيم إلى الشرق في مقبض ممتد إلى ما لا نهاية يتبع، على طول الشاطئ، طريق لبدة. يوجد باب يفتح في السور في اتجاه الغرب، نحو جنوب تونس بالتالي. يجب الخروج من طرابلس من هناك لنجد أمام أعيننا صورتنا الكلاسيكية للواحة.

أشجار النخيل، التي بدت من البحر وكأنها تضغط على أسوار طرابلس، تبعد عنها في الواقع بضع مئات من الأمتار. لذلك لا نخرج من المدينة تحت خضرة رائعة، كما كانت المخيلة تحب أن تتصور. ولا نرى سوى حقل عارٍ ومغبر حيث يبحث أطفال فقراء باستمرار عن قطع من الصفيح بين القمامة التي تُلقى هناك. البحر الأزرق، بلون أزرق صريح يمزقه زبد متلألئ، يتراقص على بعد أمتار قليلة، دائمًا هائج في هذا المكان، لأنه يصطدم بقاعدة الصخور شبه الدائرية، التي تمتد أمام طرابلس. هناك، تأتي عائلات بأكملها غالبًا لغسل الحصر عن طريق دوسها في الماء، ثم تعيدها في موكب، ملفوفة على الرأس - نزهة صحية أو عملية أخيرة للمصنعين، لا أعرف. أبعد من ذلك، ما بدا كمرج بعشب قصير هو مقبرة

اليهود، «جبانة اليهود»، التي تستند من جهة البحر إلى كتلة من الصخور الغريبة، مثقوبة كالإسفنج بفقاعات صغيرة منفجرة.

ثم يبدأ شاطئ من الرمال الجميلة، حيث تنتهي، في نقطة هزمتها الأمواج، آخر أشجار النخيل في الواحة، مقاتلين في طليعة المعركة ضد رياح البحر على قممها والرمال عند قواعدها. الجذور، المتفحمة بفعل الزمن، تُرى تحت الرمال الرطبة، أعمدة سوداء من الفحم يفتتها القدم عند المرور وتحيط بقبة مبيضة بعناية، حارسة منيعة على بعد خطوات قليلة من الأمواج الزرقاء. الفكرة الدينية التي يستحضرها هذا النصب الصغير تأخذ حياة، وتستمر، وتبرز أكثر مع غابة النخيل التي تصعد على الفور منحدر الرمال، مستقيمة ونبيلة، بالكاد تميل الأولى تحت رياح البحر، متباعدة كأعمدة صحن كنيسة. عند قمة التلة الرملية، تلتقي بأوراق الحدائق الأولى المتشابكة، مختلطة بأشجار التين والبرتقال. على السجادة الرملية الشقراء التي لا يشوبها شائبة، المتلألئة كقطع من الأحجار الكريمة تحت زوايا معينة من الشمس، تتجول رماح الظل التي تلقيها سعف النخيل بوقار عبر الظلال الحادة التي ترسمها الجذوع في خطوط. نرى خلفها امتداد الرمال اللامتناهي تحت السماء الشاسعة. بعيدًا جدًا، على تلة صغيرة، يرسم نوع من الحصن أو الموقع التركي خطًا صغيرًا أكثر وضوحًا فوق تموجات الرمال الكبيرة. ولولا ذلك لما رأيناه، لأنه من نفس لون الرمال، لو لم نسمع من ساعة إلى أخرى أصوات أبواق تجر صداها في السهل كاستغاثات جرحى...

تحت صحن النخيل، أمام القبة، تمر في كل لحظة جمال حمراء، سوداء، أو رمادية حمراء؛ وسجادة الرمال الجافة سميكة جدًا وأقدامها تغوص فيها بعمق، لدرجة أننا لا نسمعها، إلا إذا شجع سائقها مشيتها الهادئة بـ«أش!... أش... ش... ش!...»؛ يبدو حينها وكأنه يفرض عليها الصمت أثناء عبور كاتدرائية. ظل النخيل العالي عابر وهزيل لدرجة أن الجمال تبدو وكأنها مثقوبة بسهام الشمس أكثر من كونها تداعبها الظلال. ويتردد

صدى أصوات العرب بين الجذوع العالية بأصداء مدوية تُسمع تحت المباني ذات القباب العالية والأعمدة المتعددة. وتختفي الجمال واحدة تلو الأخرى في طريق منخفض من الطين الأسود المتخثر في صخور؛ خطواتها الحذرة، في نزول المنحدر، تبدو كبدايات ركوع. تختفي، رمادية، بين تلال من الطين الرمادي، وتظهر مرة أخرى عدة مرات في البعيد، أو يظهر فقط رأس السائق المغطى وهو جالس على ظهرها. لديهم، في هذا البلد، طريقة لاستكشاف المناطق المحيطة، نظرة كاشفة للكمائن لم تعد تُلاحظ لدى عرب الجزائر، لأن طرق طرابلس غير آمنة، وتقدم الطرق منخفضات، وانغماسات في الرمال المتحركة، ومنعطفات معقدة حول تلال حجرية تتطلب حذرًا لا هوادة فيه. عند العودة من إحدى هذه التلال، يمكن للمرء أن يشعر بالإحساس الدقيق بما يعنيه الدخول إلى واحة: تترك الطين المسخن بالشمس الثقيلة، وتدخل تحت غابة جميلة تهتز سعفها فوق الرأس بإيماءات حماية؛ في العمق، تعد خصلات الخضرة بينابيع خفية؛ تبدو القبة الصغيرة وكأنها تنتظر صلوات من القلوب الشاكرة، وحول هذا الملجأ ذي النضارة النسبية، يمتد الامتداد الكئيب للرمال بأمواجه بالكاد المرسومة، التي تشرب مباشرة من الشمس الكاملة وترمي ضوءها بشكل مفرط حتى قاع السماء الزرقاء. على حافة النخيل، تكون الأرض محفورة بحفر مخروطية في قاعها تتربص نمل الأسد بفريستها.

تتجه هذه النخيل المهيبة، في شارع واسع، ليس نحو الباب الغربي، باب المقبرة اليهودية، بل نحو نقطة تقع في الجنوب الشرقي، حيث يفتح بابان متقاربان جدًا، وهما أهم أبواب طرابلس بعد باب البحر: باب المدينة وباب الخندق. عندما تغرب الشمس، يتلقى هذا الطريق الواسع المبلط بالرمل الناعم، المحاط بأشجار النخيل التي تصطف بنظام معين، من الغروب ألوانًا نحاسية حمراء أو ذهبية دموية. في هذه الساعة فقط تأخذ أوراق النخيل لونًا أخضر جميلًا، لأنه في منتصف النهار يقتل الضوء الساحق لونها ويجعلها تبدو رمادية. تهتز مراوحها البطيئة، أكثر فائدة الآن

فوق الظلال الأطول؛ خضرة حقول القمح المجاورة، التي كانت تبدو باهتة في منتصف النهار، تنتعش وترتعش في الريح الأبرد التي تهب من البحر؛ كل هذا الركن من طرابلس الذي كان صامتًا تحت الشمس القاسية يشعر بقبضتها تتراخى؛ بعض الطيور، على الرغم من ندرتها هنا، تظهر وتثرثر دون أن تغني؛ تحلق الحمائم في سماء زرقاء هادئة وسط أشعة ذهبية دافئة يبدو أنها تلتقطها تحت أجنحتها. وعلى اليسار، عند العودة إلى طرابلس، يرتفع حقل البحر الم furrowed بلا هوادة بأمواج متراقصة، أقل زرقة بالفعل، أكثر بنفسجية، على الأفق، وراء بعض المنازل الصغيرة الوردية المحاطة بمحاصيل نضرة جدًا.

ثم تبدأ آبار طرابلس، وهي بوابات عالية مسننة بدرجات، في الغناء. تدور البكرات الضخمة غير المستديرة، أمام خلفية السماء الصافية، بقفزات، وحركات غير مركزية على عوارض الخشب الملتوية التي تدور عليها. رمادية، بلون الخشب القديم الجاف، أو مسودة بالقطران، تهتز كبالونات إشارة استغاثة، فوق الألوان الزاهية التي تستيقظ من كل جانب لأشعة الغروب. أنينها يشبه إلى حد كبير صراخ طيور النورس، لدرجة أن المرء يبحث أكثر من مرة باتجاه البحر عن الطائر الذي يمر... في جميع الآبار العربية الكبيرة، ليس الرجال هم الذين يسحبون الحبل، بل حمار عادة، وأحيانًا ثور، ونادرًا ما يكون جمل. يُربط الحبل بعنق الحيوان، الذي يسحبه نزولًا على منحدر محفور في الأرض، على جانب واحد من البئر. عندما يصعد الحفرة، لنزول الدلو الفارغ، تأخذ مشيته خفة تجبر البكرة على إصدار أصوات مرحة، بحيث يمكن بالعادة تمييز، بين كل هذه أغاني الآبار، والدلاء التي تصعد، بأنينها الممتد، وتلك التي تنزل فارغة، بصرخاتها المتقطعة كالضحك.

سواء تبعت العين الخط الأزرق للبحر، أو الشارع الرملي، الذي سرعان ما يترك النخيل ليمر أمام منازل جديدة وأبواب خانات حتى باب الخندق، فإنها تلتقي، عند نقطة التقائهما، بطرابلس، متجمعة بين

جدران مائلة عند قاعدتها وتهيمن من الأعلى على المحاصيل، وحقول المقابر المنخفضة، التي تشكل المناطق المحيطة. بيضاء في الأماكن المرممة، وبعض الحصون مسننة، وأخرى ذات قمة ملساء، مجذومة ورمادية، ملطخة هنا وهناك بفضلات المجاري، بلون عام من الطين الجاف، تنحني فوق المدينة، وتشبك زواياها عليها كقطع درع محكم، بينما أعلى من ذلك، ترتفع المآذن الثماني ذات الطراز التركي للمساجد، أبراج مستديرة، هشة وبيضاء، يعلوها رأس أخضر، كأعمدة قصيرة مسلحة برؤوس برونزية.

أمام باب المدينة يفتح الطريق الطويل الذي يسمى «سوق الحدادين»، وخلفه، مرسومة أكثرمنها مبنية، ثلاثة شوارع جديدة أخرى موازية. لكن قبل ذلك، تنحدر الأرض إلى اليسار، نحو البحر، وتلتف حول مقهيين خشبيين، وتتطور شرق المدينة إلى شاطئ رملي واسع يستخدم للأسواق الكبيرة يوم الثلاثاء. البحر هناك هادئ إلى حد ما، تسيطر عليه الصخور التي تحيط بالميناء. مع نموه، حول الشاطئ، نرى وراء الجدران البيضاء للشوارع الموازية، محيط أشجار النخيل العالية في الواحة. إهمال لا يمكن أن يكون إلا شرقيًا، أدى إلى التخلي على الشاطئ، بالقرب من باب المدينة، عن سفينة بخارية قديمة، غارقة في الرمال اليوم، كانت تخدم مرة واحدة في الأسبوع بين مالطا وطرابلس، قبل أن تأتي السفن العابرة للمحيطات بانتظام من تونس. تتآكل براحتها، وتتدمّر أكثر قليلًا مع كل عاصفة. ترقد هياكل أخرى، صناديق مياه، أضلاع هيكلية، أضلاع أو ألواح داخلية؛ وأخيرًا، بارتفاع كنيسة، تظهر هيكلها السفلي عاريًا من القاع، دفعت عاصفة مركب شراعي إنجليزي، غرق في عام 1888، مقدمته فوق الطريق الذي يمتد على طول الشاطئ. تم سد شقوقه بحصر من القش تتجعد وتصدر صوتًا مع النسيم على جوانبه.

يستمر الشاطئ حتى سفح تلة تحمل مباني إدارة التبغ التركية. من وقت لآخر، تُلقى فضلات الأوراق في البحر؛ وغالبًا ما يعيدها إلى الرمال على حافة الأمواج. ثم يأتي جنود فقراء ليلتقطوا التبغ، وحتى بعدهم،

زنوج أقل تطلبًا. يحدث أن يُلقى هذا التبغ، بواسطة الموج، مصبوغًا باللون البنفسجي، لأن صباغي الصوف يذهبون، بعد الخروج من الأحواض، لغمس خيوطهم هناك، بحيث نرى الرمال تنزل بنفسجية تحت الماء والأمواج تتكسر بنفسجية. أبعد من ذلك، يصبح الشاطئ شديد الانحدار؛ يصعد طريق لبدة على جرف صغير من الرمال. هناك يوجد معسكر الباشا (سند الباشا)، يسبقه أرض مربعة كبيرة يحيط بها جدار من الحجارة الجافة، حيث تزهر أحواض الزهور في شجيرات بين الأكشاك: هذه هي حدائق الفرقة (جنائن الفريق). هذه الأكشاك الأنيقة، ذات الزجاج البرتقالي أو الأخضر المائي، حيث يجب أن يكون الجولطيفًا في الصيف، لاستنشاق هواء البحر وسط أكاليل من نبات الكرمة العذراء، تشكل تباينًا مؤلمًا مع واجهة ثكنة ضخمة ترتفع على ثلاثة طوابق، في الزاوية الأخرى من طريق لبدة، والتي ليس لها سوى واجهتها، حيث نفدت الأموال لبناء أي شيء خلفها.

في موقع الغرف المستقبلية، ربما بتشجيع من الأمل في السكن يومًا ما في هذا المبنى الذي بدأ العمل فيه، يسكن الجنود الأتراك تحت خيام من القماش. نلتقي بهم دائمًا بوجه حزين، يذهبون واحدًا تلو الآخر، عندما يشاءون، لجلب الماء من ثلاثة آبار موجودة على الشاطئ، بحبل يُسحب باليد. يملؤون بهذه الطريقة صفائح مربعة من الصفيح، يصل فيها البترول إلى طرابلس، ويُشترى مستعملًا، ويعلقونها، بمقبض من الخيط صنعوه بأنفسهم، على قطعة خشب ملتوية يحملونها على الكتف؛ آخرون يستخدمون زجاجات شمبانيا قديمة، مربوطة من العنق لحملها. هناك أيضًا من يذهب في الطرق المنخفضة للواحة، راكبًا على جمل يحمل براميل مسطحة، لجلب الماء من آبار أكثر غزارة محفورة بين المقابر، والتي يجب أن يتم ترشيح محتواها فوق الجثث. عدة مرات، رأيتهم يعودون من المطابخ بالحصص التي تمنحها لهم الحكومة؛ أطباق كبيرة من الأرز الساخن على أقراص من النحاس الأحمر، يدعمونها ككفة ميزان، بواسطة

الحبال الثلاثة التي تشكل هرمًا فوق المركز، بينما هنا وهناك تبدو الأبواق الصدئة وكأنها تترجم، بعدم دقة ألحانها، حزنهم اللامتناهي. أوه! كم نحن بعيدون عن الصرخات المبهجة، والسقطات المضحكة التي تستجيب، في ثكناتنا، لقرع جرس الحساء! يعودون بأرزهم دون فرح، ثقيلين وبطيئين تحت هذا الحمل، كما لو كان الأمر يتعلق بمهمة شاقة أخرى. يجب عليهم علاوة على ذلك تقسيمه إلى أربع أو خمس حصص؛ لم يوجد بعد لديهم وعاء الطعام الفردي.

قال لي تاجر سمين من طرابلس ذات يوم، وهو يشير إليهم: «آه! آه! إنهم سعداء هذه الأيام!... لقد وزع عليهم الباشا خرافًا للشواء، بمناسبة الأعياد التي تسبق رمضان». يا للأسف! هؤلاء الفقراء الكبار، إذا بدوا له فرحين، فماذا كانوا سيبدون لي، في أيام أبعد من تلك التي أكلوا فيها لحم الخروف! على الساحات الرملية التي تشكل مركز المعسكر، يتمرنون بنظام لا بأس به وحركات لا تختلف كثيرًا عن حركاتنا، لكن دون أن يتمكنوا من التخلي عن مشيتهم كفلاحين ثقيلين، ووقفتهم المنحنية إلى الأمام لمواكبة الخطى. لا يوجد في أي مكان ذلك الحماس الذي يجعل كعوب البنادق والأيدي تسقط جميعًا في آن واحد كواحدة. يحتفظون دائمًا بالخرق والافتقار إلى التناسق الذي يميز المجندين. لكن عند النظر إليهم عن قرب، فإنهم رجال أقوياء؛ أعناقهم المحروقة بالشمس مكشوفة عصبية، قوية؛ عضلات الكتفين تنتفخ عند أدنى حركة تحت القماش البالي الذي يضيق عليهم. نراهم أحيانًا يسبحون عراة على الشاطئ؛ تمتلك هذه الأجسام قوة هيكلية، وقدرة على الجهد المطول لا نجدها بسهولة في سلالاتنا الصغيرة الرشيقة والسطحية. بعد التمرين، نرى الضباط يعودون، جادين، قساة، بنظاراتهم الزرقاء الكبيرة التي تلتهم وجوههم. أحيانًا، أحدهم أسمن، محب للراحة، يركب على مؤخرة حمار صغير، حسب العادة العربية، ويهرول دون حرج، وقدماه تلامسان الأرض، وهو يرفع سيفه المنحني الكبير...

عندما تبدأ الموسيقى العسكرية في العزف، في أيام الاستعراضات التي يقوم بها الباشا، يتشكل الجنود في مربع على إحدى هذه الساحات الكبيرة من الرمال الحمراء. هذه الموسيقى! لا يمكن سماع شيء أكثر جنائزية... كل عازف لديه أمامه حامل نوتات على حامل ثلاثي. معظم الآلات النحاسية من الطراز القديم، أنابيب تقطير طويلة، مراجل ملتوية تتجاوز رؤوس أطول الأتراك بمتر. وعندما تبدأ هذه الآلات الهائلة في عزف ألحان ريفية صغيرة بهدوء، خجولة، ممتدة، تجعل الترومبونات تتسكع، والنايات الصغيرة تتكلم من الأنف، والمزامير تطلق أصواتًا متقطعة، وتحاول الطبلة الكبيرة رفع المعنويات من حين لآخر بضربة عصا، لكنها تعود فورًا إلى نبرتها الحزينة، أنينها في مقام صغير مقطوع بالقلق والتنهدات؛ عندما تتحد في همهمة غير واضحة من مقطوعة تعاد حتى الإشباع، بينما ترتفع الأكواع لتقترب من فوهات الآلات، وتفتح شقوقها وتظهر القميص، يظن المرء أنه يسمع، خلف الحراس الذين يحرسون بوابة المعسكر، وعينهم شاردة على البحر الذي يُرى، الأنين الخافت، غير المعترف به، لجيش كامل يعاني، شرح متواضع جدًا، محترم جدًا، يهمس به كل هؤلاء البائسين للباشا، على الألحان الساذجة التي تعلموها في قراهم في طفولتهم، ربما وهم يرقصون مع صديقاتهم التركيات الصغيرات، بعيدات جدًا الآن وراء البحر الأزرق الذي يغسل عكا، إزمير، وإسطنبول. أوه! نعم، كلهم يبكون، يبكون بهذه الموسيقى الصغيرة البسيطة التي يتعرفون عليها جيدًا على الرغم من الآلات الكبيرة التي يتم تعزيزها بها؛ يبكون في أعماق أنفسهم دموعًا تتضاعف مع نوبات اليأس، كأطفال يئنون دون أن يتمكنوا من شرح أنفسهم، وكانوا سيجعلونك تبكي أيضًا، بلا حدود، لو لم تنتزع نفسك من هذا المشهد من الرثاء الذي يُعزف على تلة من الرمال، أمام البحر الأزرق، في مربع من القوات يراجعه الضباط، ومسبحة في أيديهم...

الجمال التي تخرج من شوارع الواحة، الحمير الصغيرة التي يركبها الجميع، عرب، زنوج، أتراك، نساء، أطفال، أغنياء أو فقراء، وخاصة

عربات الأجرة، كل هذا يكفي لإعطاء شاطئ طرابلس حيوية مستمرة، مع أسراب الحمام المتراصة، التي تهبط بشكل حلزوني على آثار الحيوانات. لكن كيف يمكن إحياء، لعين لم ترها، عربات الأجرة الطرابلسية؟ هذه المظلات الصغيرة على أربعة أعمدة مائلة، هذا الشكل المتسع من الأعلى كما كانت كراسي الحمل في القرن العظيم، أو ببساطة عربات اليد الإيطالية لبائعي المثلجات، عجلاتها المبالغ فيها، ألوانها الصارخة وستائرها من القطن الأحمر، الضرورية للمسلمين الذين يتنزهون بحريمهم، ولكن يغلقها أيضًا، من باب الذوق الرفيع، العائلات اليهودية، لتعطي نفسها مظهرًا من الغموض. ولا تعتقد أنها تُجر بواسطة خيول هزيلة - لا! أشد الخيول حماسًا وأفضلها بنية في طرابلس، خيول نارية، خيول فاخرة، تدفع هذه الصناديق الصغيرة الملونة، تعبر الشاطئ في بضع قفزات من العدو، كأقراص مقذوفة، تتبلل عند حافة الأمواج، حيث الرمال أكثر صلابة، وتتلقى على رؤوسها لكمات من سائقها، الذي يركض على قدميه على طول العربة وهو يصرخ... يُجتاز شاطئ طرابلس في كل دقيقة بهذه العربات الهائجة، المجنونة، التي تتسابق في السرعة، عادة اثنتان أو ثلاث معًا (إنها صغيرة جدًا لدرجة أن واحدة لا تكفي لعائلة كبيرة). تصلك هذه السباقات من الخلف مع عاصفة من الصرخات، صرخات باللغات السودانية، - ليس لتحذيرك، بل لإثارة الخيول. عندما تتبع خط موت الأمواج الصغيرة، لا تعرف أين تهرب... إلى البحر... أو على الرمال التي ترتفع كإعصار بسبب دوران العجلات. تنتهي السباقات بالضرورة عند صعود طريق لبدة، حيث تغوص العجلات في نصف متر من الرمال، إلا إذا انكسرت محاور هذه العجلات، التي تتأرجح دائمًا بيأس، فجأة: تنقلب العربة حينئذٍ أو تنهار. وكلما كنت أغنى بالملابس وأكثر وعدًا بالإكراميات الجيدة، زادت السرعة التي تُكرم بها، وقلّ تأكدك من الوصول إلى نهاية الشاطئ. ومع ذلك، فإن فقر الحمولة ليس ضمانًا للأمان؛ ذات يوم، انخرطت سيارتان من هذه السيارات محملتان بالتبن المضغوط

ويقودهما زنجيان، في إحدى هذه الصراعات المجنونة، وكلاهما في نفس الوقت، كُسرت محاورهما، وجلستا على عجلاتهما والخيول على بطونها. كانت هذه طريقتهما، هذان الزنجيان، في القيام بخدمة نقل لحساب الحكومة التركية! في منتصف النهار، في الساعات التي يكون فيها الشاطئ أقل ازدحامًا، يصطف «الكرارسي» (السائقون) عرباتهم، أمام الباخرة الصدئة، بالقرب من المقاهي الخشبية. إنهم في وضع جيد لتقديم عروضهم لأولئك الذين يخرجون من باب المدينة. على عكس عاداتنا، فإنهم يتقاضون أجرهم مقدمًا (إلا إذا كنت شخصية مهمة أو تاجرًا معروفًا). يمدون أيديهم ويقولون لك بنبرة وقحة إلى حد ما: «جيب، جيب» (أحضر، ادفع). الزنوج، كالعادة، أكثر لطفًا.لا يبدأ التدفق العام للعربات إلا في حوالي الساعة الخامسة (في الربيع). تُغلق المكاتب والمتاجر الكبيرة؛ تكون الشمس أقل حرارة؛ ينتشر الناس على الشاطئ. هنا وهناك، فستان امرأة على الطراز الأوروبي، معزول، غريب، يبدو وكأنه من تصميم مهووسة، وسط الحجاب الواسع، والأقمشة الملفوفة ببساطة حول النساء المحليات. نرى بعض المعاطف السوداء يرتديها أتراك رفيعو المستوى، تجار كبار (عدد قليل جدًا من السترات الإسطنبولية ذات الياقة الضيقة الصغيرة)، مصحوبة بسراويل، أو بالأحرى سراويل داخلية، من القماش الأبيض، مع جوارب ظاهرة فوق النعال: رجل يرتدي ملابسه، - أليس هذا رمزًا للشرقي، المتأخر في ارتداء الزي الكامل للحضارة؟ الكثيرون لديهم مظهر معلم جيد بوجه دانتي.

السراويل البيضاء الضيقة يرتديها هنا أيضًا عدد معين من العرب والزنوج؛ وأخرى، من نفس القصة، ولكن الزرقاء، يرتديها اليهود. إنها قبيحة على الجميع وغير متناسقة، كونها نهاية زي يُلف بشكل واسع على الرأس والكتفين. ومع ذلك، يُنقذ هذا السروال من السخرية المطلقة، لأنه لا يرافقه البرنس، بل «الحولي» فقط، - أبيض عند الأغنياء وسكان المدن، وبني، سميك، ينتهي دائمًا بشرابات طويلة، عند الزنوج وأهل

الأرياف البعيدة.

مشهد جميل هذه الصراعات للمارة مع رياح البحر التي تلقي بالأوشحة من على الأكتاف، وتجعلها ترفرف، وتلفها حول الوجوه؛ إنها مناسبات لإيماءات رائعة، من الصبر والنبل لا يمكن أن يمتلكها إلا العرب، لإحكام هذه الأشرعة الصوفية حولهم، شقراء حد الشفافية.

الطرابلسيون الذين يرتدون «الحولي» ويضعونه ببساطة مرة واحدة على الجمجمة، - التي لا تتضخم، كما هو الحال عند الجزائريين، بكومة من الشاشيات. ويعد زيهم أجمل بكثير؛ الكل المكون من قطع قماش بدون خياطة هو صورة كاملة للزي اليوناني القديم. الرأس المخفف من هذه الطاسة من الخيوط، الشائعة جدًا في الجزائر، يرتدي ببساطة قلنسوة من القماش الأبيض المطرزة بالرسوم. وأهل الريف، القادمون من زوارة، لبدة، مصراتة، أو حتى من غريان والحمادة، يستخدمون هذه القبعة دون لفها ب»الحولي»، بل يغرسونها على أعينهم؛ وهي حينئذٍ تشغل مكانًا وسطًا بين قبعة ذات حاجب وقبعة قطنية بدون فتيل. كثير من الإيطاليين والموظفين الأتراك الشباب يرتدون قبعة السفر الإنجليزية، من قماش مربعات.

يمر العرب، لكنهم يتنزهون قليلًا؛ فقط الأتراك، الإيطاليون، اليونانيون، واليهود الأغنياء. بجانب الضباط، الذين يشكلون مجموعة منفصلة، والجنود الذين يتسكعون وهم يجرون أقدامهم الحافية، ونلاحظ العديد من السلوكيات والوجوه الغريبة: هؤلاء مسلمات، تآمرن بلا شك ضد ثبات زيهن ويأتين لاستعراض مظلات براقة، بنفسجية صارخة أو حمراء دموية، لا يعرفن بعد كيف يمسكن بها؛ بعضهن يستبدلن بالفعل المنديل الداكن المنقط بالأبيض، على الموضة هنا كعصابة للوجه، بكريب أسود شفاف. وهناك موظف تركي عجوز، أشيب، عينه زجاجية، يتبع وحده إلى حافة الأمواج، بعيدًا، وهو يفتل مسبحته، - أو شاب أنيق على طراز إسطنبول: طربوش بلون هادئ، حذاء

جلدي لامع، ملابس رمادية فاتحة مفصلة في لندن، أنف تركي طويل حاد، مظهر شاحب، مع هيئة طالب لاهوتي فاسد؛ يحمل باقة من الورود في يده اليسرى، ومسبحة في يده اليمنى، وينظر بوقاحة إلى النساء اللواتي يمررن، خاصة الزنجيات، المحجبات بشكل فوضوي وشفاههن الطيبة الطفولية المفتوحة دائمًا تبدو وكأنها نتاج وراثي للتثاؤب من الدهشة أمام كل شيء والضحك الذي لا ينقطع. ثم، طفلان شاميان، أبناء ضباط ربما، يرافقهما معلم زنجي: يذكران بدميتين توأم: معطف بحزام، سروال ضيق، مقصوص من قماش برسيا أصفر مزخرف، وطربوش مهيب على جمجمتهما الصغيرة، حذاء مصقول جيدًا وعين متأنقة. أحيانًا، مفاجأة تسحرك، إحدى تلك الأفكار الساذجة في الزي التي لن تمحى ذكراها أبدًا: ذات يوم، فتاتان في الثانية عشرة من عمرهما، ترتديان الأبيض، لم يكن لديهما سوى «فراشية» واحدة لهما؛ لقد لفت كل منهما نفسها في طرف من القماش، تلتف أو تتفكك حسب احتياجات مشيهما، وتمسك كل منهما الأخرى من خصرها، ورأساهما متكئان على بعضهما البعض!

لإخفاء وجوههن، لا تمسك معظم الطرابلسيات القماش تحت ذقونهن، بل يسحبن إلى اليسار، والذراع نصف ممدودة، حافتي الملحفة، تاركات بذلك فتحة طويلة لأعينهن؛ يمشين بهذه الوضعية، والذراع اليسرى ممدودة خارج الكتف.

هناك زنجي فخور يتقدم، يتذوق بعض الغرور الجديد لشعوره بأنه يرتدي ملابس، مزود بالأداتين اللتين تُقبلان أولاً بين جميع عروض الحضارة، بندقية في حزام ومظلة كبيرة في يده. ونصادف أيضًا مجموعات عائدة من احتفال عائلي، في الواحة: الأطفال يمرحون وهم يحملون أسلحة غير عادية، بنادق صدئة، بنادق ذات فوهة نحاسية، مسدسات تُشعل بفتيل.

وسط كل هؤلاء المشاة، يبعدونهم بالصراخ، تمر "الكاروسات"، عربات الأجرة المكتظة بعائلات بأكملها، نساء محجبات، أطفال مطليون

بالذهب، يذهبون إلى بساتينهم، تحت أشجار النخيل؛ بينما يبدو أن الجمال تحصي خطواتها، يركبها رجال بوجوه حمراء، يحملون خلف ظهورهم بندقية طويلة كعمود؛ والجمال الصغيرة تعدو، غالبًا ما تحمل نساء؛ أو حصان، يمتطيه طفل صغير جدًا عاريًا، يطلقه، دون خوف، بأقصى سرعة. عندما تسير الحمير عارية الظهر، تظهر أشداقها المجروحة وكأنها مختومة بخواتم حمراء.

هذه هي الساعة أيضًا التي يخرج فيها الباشا في عربته، وهي مجرد عربة مكشوفة مغبرة، ذات فوانيس باهتة. يرافقه أربعة فرسان باهتين، وإن كانوا أقل تمزقًا من الآخرين. يتبعون، على خيول صغيرة شديدة الحماس، والبنادق منتصبة أمام السروج. يحدد مرور هذه العربة على طول الشاطئ، بين الضباط، إيماءة جميلة من الأيدي اليمنى التي تلمس القلب والشفة والجبين للتحية. أولئك الذين يفعلون ذلك بسرعة، يضعون أصابعهم فقط على الجبين الذي ينحني، كما يفعل المسيحيون المتدينون لإشارة صليب متواضعة.

أحيانًا تتشكل دائرة، هزيلة جدًا، لأن الفضول ليس عيبًا عربيًا، حول زنجي مهرج، يرتدي تنورة من شرائح معدنية تصدر صوتًا كالصنجات، ومقنعًا بأحد تلك الرؤوس المخيفة المصنوعة في السودان، فمه وصدغاه مرصعان بالودع، وشواربه منتصبة حول شفة دامية. يرقص، المهرج المسكين، وهو يضرب على دف بعظمة، ويقوم بكل أنواع الحركات البهلوانية التي ينظر إليها العرب بابتسامة يوقفها الازدراء، يقلد السكير، المجنون... عندما لا يتوقف أحد، يكون حينئذٍ مثيرًا للشفقة، يباعد ضرباته الجنائزية على دفه، يتجول، ليمتعهم، حول أناس يحولون أنظارهم، وهو يرقص دائمًا، ساقه مرفوعة كطيور الفلامنغو، - مشية بين الترنح والقفز، منحنيات مقطوعة بالدورانات. لديه زوجة صغيرة، زنجية سمينة، رأسها مستدير وشعرها مجعد كالأطفال. من وقت لآخر، تبدأ في لعب تمثيلية صامتة فظة معه؛ تتظاهر بتركه، لأنه سكران: لم

تعد تريده، تذهب لتبحث عن سيد آخر، ولهذا، تشم الحاضرين، تقارن بينهم، وتأتي في النهاية لتتكئ على كتف أحدهم، غالبًا أحد الجنود الأتراك، الذين يتسامحون مع هذه المزاح أفضل من العرب بالبرنس. أحيانًا، قبل أن تتكئ، تدور وهي تشم، رأسها مستعد بالفعل للاستلقاء، وجذعها لا يزال منتصبًا، بحركة ملتوية لحيوان على وشك التمدد، وتنتهي بالسقوط برأسها أمام أقدام الجندي، مما يعني أنها تصبح ملكه، أنثاه. هو، يأخذها، يداعبها، يخلع بعض ملابسها، يتظاهر بأنه يأخذها؛ لكنها تعيد بسرعة لزوجها النقود التي جنتها من هذه الكوميديا. هذا الزوج الزنجي لا يغضب؛ إنه يشرف على المداعبات، ويضبط إيقاعها على دفه. كان لي سوء الحظ أن أعطيه قرشًا؛ منذ ذلك الحين، يركض نحوي بمجرد أن يراني، ويحيطني برقصة آكلي لحوم البشر ويقوم، عن قرب شديد، بانحناءات تمنعني من المشي، ويرفع ذراعيه إلى السماء، كما لو كان أمام إله، ويدندن ترنيمة غريبة: "يا كونسو، يا كونسو، يا كونسو، كونسو" (يا قنصل، يا قنصل). هذا هو أعلى تعبير عن الاحترام في طرابلس.

عندما يحل الليل، لا يبقى على الشاطئ سوى الجمال والحمير الصغيرة المختلطة لتجار العشب، الذين يبيعونه في أكوام صغيرة، عند سفح جدار أبيض كبير يحيط بسوق الحلفاء: سيعودون، إذا لم يسكنوا بعيدًا جدًا.

آخرون يأتون متأخرين، محملين بحزم من الحلفاء،[1] يقضون الليلة على الشاطئ. كثير من السائقين يحملون في أيديهم عصا، رأسها ذو انحناءة واسعة كان على الموضة عندنا، قبل عامين. هذه الموضة الإنجليزية الفائقة مضحكة جدًا في أيدي بدو طرابلس! إما عادة، أو حذرًا، يضعون جمالهم في دائرة، ورؤوسهم نحو المركز، ويشكلون حصنًا حربيًا،

1-يجب كتابة «حلفا» بحاء للإشارة إلى العشب النسيجي. «ألفا»، بدون حاء، هو اسم الشق الصغير الذي يتبع نواة التمر، بالطول. العرب يصححون لك بدقة بشأن هذا الخطأ.

يراقبون في وسطه مستلقين على بنادقهم الطويلة اللامتناهية. من جهة طرابلس القريبة، لا يوجد أي انعكاس للإضاءة؛ بالكاد بعض الفوانيس عند باب المدينة. فقط المنارة الفرنسية، التي بنيت مؤخرًا، ترسل دائرة من الأضواء الصفراء على بعض أسطح المنازل، ثم تختفي لفترة طويلة... وسماء طرابلس، التي توقظ شيئًا فشيئًا في أعماقها زرقتها الليلية، تبدو وكأنها تسقط قريبة جدًا فوق الرؤوس، تتلألأ بملايين نجومها الواسعة والمشرقة، ذات مراحل من السطوع تبدو كإشارات بينها.

المقاهي الخشبية على شاطئ البحر تضاء بالعديد من الفوانيس؛ والمقاعد في الخارج تمتلئ بالناس؛ يأتي الضباط الأتراك ليمتصوا نارجيلتهم (يوجد، للمعتادين، واجهتان زجاجيتان ممتلئتان، مما يشكل عرضًا غريبًا). لكن حولها، يظل سوق الحدادين وسوق الخبز غارقين في ظلام عميق.

في ظل حصن باب المدينة، تحت فانوس مثبت بشكل مائل على الحائط، يطلب أعمى عربي الصدقة، برنسه يكتسحه تيار الهواء العنيف الذي ترسله الأمواج تحت الباب. صوته الأجش يغضب قليلاً، عندما يضايقه الجوع؛ ينهار حينئذٍ تمامًا في المجرى، يضع صدره مسطحًا على الأرض، ويستمر في الطلب: "إكرام من الله!" لكن حنجرته الخشنة تضع "آ" في كل مكان وتصدر صوتًا: "يا كريم أمتع الله"؛ أو يستدعي قديسًا ولا يُسمع سوى: "يااا ل'الله... سيدي عبد السلام، يااا ل'الله!".

في تلك الزاوية المعتمة، تحت ضوء فانوس يكاد يسقط، يجلس ذلك الأعمى وحيدًا في الليل. لا يلتفت إليه أحد، وجلده العاري يرتجف في مهب الريح رغم خرق برنسه البالي. وهو يناجي ربه، مصارعًا الجوع كوحش مطارد، بدا لي بطل طرابلس الأوحد. لقد انتصر بازدرائه للألم انتصارًا يفوق كل انتصارات الباشاوات الذين سيحكمون يومًا في سراي الباشاوات، ذاك القصر الذي يتسول هو عند سفحه.

إنه لشرف عظيم أن أتمكن من تأمل أكبر أسواق يوم الثلاثاء، السوق

الذي يستمر مرة واحدة في السنة لمدة ثمانية أيام ويسبق رمضان.

كنت محظوظًا بما فيه الكفاية لأتمكن من حضور الأيام الثلاثة الأخيرة من هذا التجمع، الفريد من نوعه على الساحل البربري من الإسكندرية إلى طنجة، حيث يعرض جميع أنواع الرجال والحيوانات، وجميع المنتجات، والأزياء، واللهجات الإقليمية، والتفضيلات والعادات التجارية لمنطقة واسعة لم يتمكن الأوروبيون من اختراقها حتى الآن، كمعرض مصغر يأتي إليه أكثر الناس تمردًا على الظهور لعرض أنفسهم، مدفوعين بشغف التجارة.

إنه مشهد grandiose، مشهد مؤثر، يستحق وحده كل عجائب المدينة، هذا الشاطئ الصاخب بعشرة آلاف برنس أبيض، هذه العشرة آلاف رأس تتجاوزها أعناق الجمال العالية وقمم الخيام الرمادية، ومنها يخرج همس منخفض، صدى بطن يصارع صخب البحر، الذي يدوي بأمواجه التي لا تعرف المد والجزر على حافة صفوف الأكشاك. حتى في طرق الواحة، بعيدًا نوعًا ما، تحمل الرياح هذا الهدير ذي الصوتين للبحر والسوق، حيث تنفجر على فترات أصوات أمواج متكسرة ترتد، ونداءات صارخة. لكن، عندما تدخل هذا المعترك، تنفصل الأصوات، والضوضاء، تتبسط، وتستقر حسب الأحياء، وتجعل المرء يخمن، على مسافة ما، قبل أن يراها، أنواع المهن، وتخصصات التجارة، ومواطن الماشية.

في أقصى الشاطئ، بمحاذاة طريق لبدة، ينتصب سوق الحيوانات بنظامٍ عفوي، حيث يفعل كل امرئ ما يحلو له دون التقيد بمنظم. تصطف الخيول على طول جدار «حدائق الفرقة»، وقد رُبطت قوائمها الأمامية بحبل يمسك به صاحبها. تتزين أعناقها بأطواق قماشية مطرزة أو بشرائط عريضة مذهبة، وكثيرًا ما تتدلى الشرابات من جباهها وحزامها الفضفاض الذي يتأرجح بين أرجلها الأمامية. أما الركاب، فتتميز باتساعها وطلائها باللون الأحمر الزاهي من الأسفل.

وبجوار الخيول، يتجمع أصحاب الأبقار والثيران. تبدو الأبقار هزيلة،

بحلمات دقيقة تشبه أصابع طفل، بينما تتميز الثيران بقرونها المستقيمة والرفيعة، أو بقرونها الصغيرة المنحنية للخلف. تقفز هذه المواشي على ثلاث قوائم، بعد أن تُطوى قائمتها الرابعة وتُقيّد عند الركبة. أما الأكثر عنادًا منها، فتقيّد ركبتاها معًا، فتقف منكسرة من الأمام، تتنفس وتخور، في مشهد يبدو كقطيع أعرج يمارس لعبة الحجلة.

وكلما ابتعدت أكثر نحو نهاية السوق، تجد نفسك في عالم الجمال المعروضة للبيع. إنها فوضى من الأعناق المتشابكة التي تتلامس وتثور وتنتصب بوقاحة فوق رؤوس من يساومون عليها. مجموعات غير مستقرة تبرك على الأرض فجأة، وتلتف أعناقها في حركة حلزونية، بينما تنهال عليها ضربات العصي.

أما النوق الحوامل، فتتجول بهدوء تام، ببطونها الممتلئة المنتفخة كقربة ماء قديمة، وهي الوحيدة التي تسلم من ضربات العصي. وتلك التي تظهر على أنوفها أورام، تمد أعناقها وتعبس بشكل هزلي، كأطفال يطلبون من يمسح لهم أنوفهم.

وبين هذه الجمال، تبرز صغارها بأناقتها وهندامها وخجلها، وأعناقها التي تتمايل برشاقة. يتراوح عمرها بين عشرين يومًا وشهرين، ولونها أبيض وردي، يغطيها زغب ناعم يجعله الريح مخمليًا. إنها تشبه النعام بريشها الناعم، وظهورها المقببة، والتواءات أعناقها الجانبية، وحركتها السريعة كطير. وتحمل على ذيلها أو عند قاعدة عنقها خيطًا من الصوف الأحمر، كعلامة على أنها معروضة للبيع. أما صغار الحمير، فهي أقل تميزًا في سلوكها، لكن عيونها تنطق بحنان أكبر، وتحمل هي الأخرى خيطًا أحمر في آذانها المثقوبة خصيصًا.

وفي خضم هذا المشهد، تتجول الحمير العجوزة، وقد تقشر جلدها وظهر لحمها العاري تحت الذباب، لكنها لا تزال قوية. تتجول بين الخيول النبيلة والجمال الطويلة والماشية، أكثر تواضعًا في الحجم، تتحرك بعقلانية كأشخاص في طريقهم لإنجاز أعمالهم، دون أي نزوة للهروب.

حتى في قلب السوق، نصادف بعض الجمال المعروضة للبيع أو الحمير ذات الخيوط الحمراء، فالكل يجلس حيث يشاء. لكن صفوف الخيام الصغيرة متراصة جدًا، وزحام الناس لا ينقطع، مما يجعل تجاوز بعضهم البعض أمرًا صعبًا، ورغم ذلك لا أحد يتذمر.

وفي زاوية من الشاطئ، مقابل الثكنة قيد الإنشاء، تتدفق قطعان الأغنام والماعز كأمواج متحركة. إنها منطقة تعمها الفوضى بسبب الهرب العبثي وذعر الحيوانات التي تندفع نحو البحر، ثم تعود لتجد أمامها حركات مخيفة من أصحاب البرنسات الذين يطردونها. وإذا هرب خروف ماكر وضاع في الحشد، ينفتح له ممر بين الناس ليتبعه صاحبه العربي، الذي يلحق به دون غضب أو شتيمة، ويعيده بكلتا يديه، ممسكًا به من أنفه وذيله.

في منطقة الباعة، تبدو صفوف الأكشاك في البداية غير واضحة، تختلط بوجود بائعات زنجيات متناثرات على الأرض. بعضهن ينتظرن تحت قطعة قماش حمراء مرفوعة كعلم، يبعن ملابس مستعملة للزنوج: تنانير مزهرة، وسترات ملونة كالببغاوات لأطفالهم، وأغطية رأس قطنية مطرزة. لكن بعدهن، يبدأ أول صف منظم: تجار القمصان والبرنسات والحولي الأبيض أو البني، والملحفات الرمادية للنساء. يعرضون على الأرض أكوامًا ضخمة من الملابس، بالكاد تحميها مناشف مربوطة بقصب، بينما تسقط أشعة الشمس عليها وكأنها تشعل ألوانها. وبجانبهم، يعرض تجار السجاد والأغطية بضاعتهم، ومعظمها مختلفة في التصميم، كل قطعة تحمل لمسة الأصالة من القرية أو العائلة التي أنتجتها، خاصة الأغطية المنسوجة في مصراتة، التي يغلب عليها اللون البنفسجي وتتميز بمربعات كبيرة من الصوف الأزرق والأصفر.

وبجوارهم، يجلس بائعو القلنسوات البيضاء المطرزة بصبر، والطواقي القطنية المخرمة، مصطفة على الأرض في أكوام منخفضة، وهم يمدحون لك تلك الأكثر بياضًا القادمة من مصر.

ثم يأتي أصحاب الخردوات، جالسين القرفصاء تحت مظلات قماشية، يعرضون على المترددين في الشراء بضاعتهم في أطباق خشبية خشنة: مسامير، رصاصات، حجارة بنادق، صابون عربي لغسل البرنس، أعواد كبريت، ومرايا صغيرة مستديرة، وأخرى تحمل نسر ألمانيا. وبحذر شديد، تجد موازين هشة لوزن المثاقيل والقراريط الثمينة، وعلبًا صغيرة جدًا من القرن تُفتح بحذر، حيث تُحفظ العطور الغالية. وفوق كل شيء «الزبد»، وهو نوع من الدبس البني ذي الرائحة النفاذة.

وهناك، تحت خيام صغيرة ونظيفة، يجلس طبيبان أو ثلاثة من خريجي جامعات تونس أو القاهرة، يتميزون ببرنس أزرق نادر في طرابلس، ولا يرفعون أعينهم عن كتبهم المفتوحة. أدواتهم بسيطة: بضعة سكاكين صدئة، مقصات ملطخة بالدماء، ورأس مرشة لوضع الحجامة، وميزان خفيف، وعلب قديمة تحتوي على مساحيق.

في مكان آخر، يُسمع طرق مستمر، حيث يضرب مصلحو الأحذية وصانعو النعال على جذوع أشجار تعمل كسندان. خيامهم تشكل حلقة، وهم كثر، وعملهم يلبي احتياجات لا حصر لها. قطع الجلد ملقاة بلا مبالاة في الممر، يلوثها المارة بأقدامهم. وعند تجار الجديد، تجد «بلغات» بلون أصفر ليموني، بنعل أبيض من جلد الجمل، خفيفة بشكل مدهش، ومزينة بتطريز كثيف يجعلها تبدو كأنها مصنوعة من قماش النجود. والغريب أن الكثير منها يحمل نقش صليب مسيحي واضح على لسانها، وهو أمر غير مفهوم لدى المسلمين.

من بعيد، ترتفع أعمدة صفراء تبدو كمعبد جميل قيد الإنشاء، لكنها في الحقيقة لفائف الحصر التي يضعها التجار واقفة حولهم، فيبدون صغارًا وهم يجلسون وسطها. يبيعون أيضًا «الليف»، وهو لحاء نخيل منسوج طبيعيًا ثم يُليّن بالمطرقة. وبالقرب منهم، يجلس الزنوج الذين يصنعون ضفائر الحلفاء، والخياطون الذين يحولونها إلى سلال مزدوجة للحمل على الدواب.

وهناك حلقة أخرى من الحرفيين: صانعو السكاكين، يركعون حول جمر مشتعل في الأرض، ويضربون على سندان صغير بين أفخاذهم بمهارة، ليصنعوا شفرات «الموس»، الطويلة للدفاع، والرقيقة لحلاقة الرأس، والصغيرة ذات المقبض النحاسي لتزيين النساء. وقبل أن يشتري العربي «موسًا»، لا بد له من تجارب كثيرة؛ لذا ترى الناس حولهم يحلقون جزءًا من سيقانهم أو رؤوسهم لاختيار أفضل شفرة. وفي هذه الأثناء، تستمر المطارق في الطرق، وتبدو المنافيخ كأكورديون يطلق هواءً يصفر تحت الجمر.

أما اليهود، فهم يبيعون تلك السكاكين الأوروبية الرديئة التي يزدرها العرب، ويعرضون أيضًا «حلاوة تركية»، وهي نوع من حلوى «النوغا» اللؤلؤية التي تذوب في الفم بنكهة رقيقة.

وأخيرًا، تعلو خيمتان كبيرتان فوق الجميع، تأويان مقاعد يجلس عليها العاطلون الأثرياء والتجار الكبار، يتناقشون في صفقاتهم أو يستمتعون بفناجين قهوتهم الصغيرة وهم يتأملون الحشد. يتدفق الناس من صف إلى آخر، متجهين نحو حافة الأمواج حيث يبيع تجار الخضار والمواد الغذائية، وأغلبهم من الزنجيات الصاخبات اللواتي يعرضن أكوامًا من الكراث والبصل والبرتقال «الدمي».

أما الركن المخصص للقرع والبطيخ، فترى فيه أكوامًا منها، بعضها صغير كالفئران الرمادية، وبعضها كبير كالأطفال الصفر، ملقاة وبطونها مفتوحة تتدفق منها سلاسل البذور. ولكن بالقرب من الأمواج، حيث تهتز الأرض مع كل موجة ترتطم بالشاطئ، تُعرض لحوم الخراف على شبكات وأوتاد. تبدو رطبة ولامعة كالمرايا، نضرة رغم أشعة الشمس التي تضربها، مخططة بالدهن الأبيض. تتدلى من أطرافها لفائف من الأمعاء والأحشاء التي تربط شرائطها الزرقاء والخضراء والرمادية بين قطع اللحم الدامية.

يولي الجزارون العرب عناية فائقة بترتيب أفخاذ الخراف، حيث يقطعونها إلى ثلاث طبقات متدرجة في الدهن، ثم يرسمون عليها بطرف

مدبب أكاليل وزخارف وعناقيد، كلٌّ حسب إلهامه. أما الرؤوس الجميلة ذات القرون المنحنية، فتُكدس في كومة، ويمدحونها للمارة، فاتحين جفون الأعين الميتة. وأسفل من ذلك، على حافة الماء، يجلس صف من الرجال القرفصاء في «الحولي»، يقضون حاجتهم ووجوههم نحو البحر.

وبين هذا الحشد الثابت من الباعة، يمر حشد آخر من المشترين: رجال يرتدون «الفرملة الطرابلسية» بتطريزات متنوعة على الصدور، أو «حايكًا» على الطريقة الطرابلسية، وزُنوج يلفون أوشحة بنية على أكتافهم، ونساء مسلمات محجبات لا يمكن اختراق نظراتهن، ويهوديات ممتلئات الصدر تهتز أجسادهن الهلامية مع كل حركة، وزنجيات بأرداف مثيرة يضبطن إيقاع مشيتهن، ويطلقن ضحكات عالية لصديقات يمررن. وهناك متسولات بلون الخشب القديم، ومجموعات من المكفوفين بعيون دامية، يتراصون للتقدم.

وتجد هنا جملاً صغيرًا لطيفًا يُعرض عليك بإصرار وبسعر بخس، وتداعبه كل الأيدي، وحميرًا تُدفع بصرخات «أرح يا!» أو «الله!»، وهي تحمل في سلالها جديانًا صغيرة تطل برؤوسها كعصافير في عش. وهناك أطفال يلعبون، يتسللون بين البرنسات، ويزعجون الأكشاك، فينهال عليهم الصياح: «يا ولد الحرام!».

صرخات، وضحكات، وأغاني عمال، وترانيم مكفوفين، وصهيل خيول، ونهيق جمال، وثغاء أغنام، كل هذه الأصوات ترتفع وتنفجر وتتردد، ثم تهدأ لتعود من جديد، منتصرةً لبضع ساعات على هدير الأمواج الواسع الذي لا يكل ولا يمل.

وكثيرًا ما يركض اثنان أو ثلاثة من العرب نحو أي غريب في الحشد، ليتخذوه حكمًا في مسألة عملة. فهناك فرنكات إسبانية ويونانية مشكوك في قيمتها، وريالات ماريا تيريزا التي، رغم أنها أكبر حجمًا من عملاتنا، قد تكون مزيفة. والمناقشات حول القروش لا تنتهي. فبعض تجار الريف لا يقبلون سوى القروش الإيطالية، وآخرون يقبلون الإيطالية والفرنسية

فقط، وفئة ثالثة تقبل الإسبانية دون اليونانية. وهناك من يثقون في «البنس» الإنجليزي، فيعرضون عليك مبادلات بعين ماكرة، ظانين أنهم سيربحون. والبعض الآخر، أكثر تطلبًا، يرفضون أي عملة تحمل صورة ملكة، ولا يقبلون إلا صور الملوك الذكور.

لقد رأيت بحارًا يجدف مائتي متر في الميناء ليعيد قطعة نقدية من فئة 50 سنتيمًا تحمل صورة الجمهورية الفرنسية، قائلاً إن هذه «السلطانة» لا قيمة لها في نظره، وإنه يريد وجه رجل. وفي النهاية، تجد كل هذه العملات المشكوك فيها طريقها إلى طاولات الصرافين اليهود الصغار، الذين يستبدلونها مقابل خسارة نصف قيمتها.

ذات يوم، قال لي تاجر طرابلسي أمام معسكر الباشا: «قائد الفرقة لا يحب العملة الفرنسية أو الإيطالية. يقول: ما دمنا تحت الحكم التركي، فلماذا نقبل عملات أخرى غير التركية؟»

فسألته: «ولكن ماذا عن الدولارات؟»

أجاب: «آه! الدولارات أمر مختلف! كلها جيدة وممتازة، فرنسية، إيطالية، إسبانية، لا يهم... المشكلة فقط في القروش السيئة.»

مسكين هذا القائد الذي يشن حربًا على القروش الأوروبية، بينما تتدفق عليه الفرنكات والدولارات التي يبحث عنها الجميع بشغف! أليس هذا هو حال الشرق كله؟ يبذل جهدًا لا يصدق لسد ثغرات صغيرة، بينما يترك أبوابًا كبيرة مفتوحة على مصراعيها.

وفي يوم الجمعة، يوم المسجد، ترفرف الأعلام الكبيرة ذات الهلال فوق المدينة، مختلطة بأعلام القناصل، فتتنافس في اتساعها، وتبدو من بعيد كموكب جوي يتمايل فوق قلعة الباشا الصامتة التي ترفض المشاركة في هذا المشهد.

يعتمد أصحاب المتاجر الصغيرة في أكثر شوارع طرابلس حيوية على الجنود في رزقهم، فترى الشارع يعج بهم كأن فوجًا عسكريًا قد انحل للتو. السقف مغطى بعرائش تمتد على ألواح خشبية مقببة. هناك تجد

المقاهي التركية، وصانعي قوالب الطرابيش، وصيدليًا عثمانيًا، والكثير من محلات البقالة التي تعرض أقراص الجبن، ومناديل التبغ، وأرغفة السكر المعلقة. وهناك أيضًا تجار «البريك» و«البقلاوة» و«الغريبة»، وصانع المعكرونة اليهودي الذي يغضب من تجمهر الفضوليين حوله. وبين كل هؤلاء، يتدفق تيار مستمر من الجنود الذين يفضلون مواطنيهم من التجار الأتراك، ويزدحمون في الشارع الضيق، الذي يضيقه أكثر صفوف الزنوج الذين يطحنون القهوة في مطاحن نحاسية ضخمة.

أبعد من ذلك، تخفت حيوية المتاجر، ولا يبقى سوى بعض الإسكافيين الإيطاليين، ثم يستمر الشارع بأبوابه المغلقة وانحناءاته الحادة وأقواسه الحجرية، ولا يقطع صمته سوى همس أجراس الطواحين.

لقد أدركت أن «باب المدينة» أصبح يعني لدى العرب المدينة القديمة داخل الأسوار، على عكس الأحياء الجديدة التي امتدت خارج البوابة. يفتح هذا الباب عند سفح قلعة الباشا، في قلب حي الجنود، أمام الترسانة، في نهاية شارع جميل تصطف على جانبيه الحدائق والأكشاك المضيئة، مما يضفي لمسة من البهجة على المدخل المهيب لقلعة القيادة. إنه محاولة للرفاهية وابتسامة استرخاء في هذه المدينة المنهمكة بالتجارة والواجبات العسكرية.

لم يدم طويلًا ذلك الحذر الذي يثيره في النفس لقاء زي عسكري أجنبي، فسرعان ما تحول تجاه الجنود الأتراك إلى شعور بالقرب. فرغم وجوههم القاسية وأكتافهم العريضة، شعرت بالاستعداد لحبهم، فالشفقة تسبق التعاطف. هؤلاء المساكين بسراويلهم القصيرة التي تكشف عن كواحلهم العارية، وأقدامهم الحافية في نعال ممزقة، ورؤوسهم المستديرة المحلوقة التي تعلوها طرابيش باهتة، كانوا مثيرين للشفقة. كانت ثقوب أكواعهم منتظمة لدرجة أنني تساءلت لبضع ساعات إن كانت جزءًا من الزي الرسمي. إن مظهرهم البائس يزداد وضوحًا وسط بهاء شمس أفريقيا، بجانب البرنسات البيضاء وملابس الطرابلسيين الأنيقة. وكلما صقلوا

أحزمتهم وحقائب ذخائرهم، زاد بهتان ستراتهم الرمادية التي تشبه ملابس السجناء، وبدت سراويلهم المرقعة بالية حتى آخر خيط.

ويزداد بؤسهم حين تراهم منهمكين في مهامهم المنزلية. يتجولون أمام المتاجر والأسواق بنظرات قلقة وطامعة، ثم يخرجون بعناية من زاوية مناديلهم عملة صغيرة لشراء بصلة أو بعض الخضار. ترى مجموعات منهم تتشاور وتجمع النقود لشراء طعام بائس كهذا. يبدو أنهم ينفقون جل نقودهم على الخبز، الذي تراه مكدسًا في كل مكان. لكن ليس بمقدورهم جميعًا شراء الخبز الطازج، فتراهم يتجولون حول عجائز زنجيات يجلسن كالأصنام في الغبار، يعرضن للبيع أكوامًا من بقايا الخبز والفتات الذي يتلمسه الفقراء قبل شرائه. أما الأوفر حظًا، فيشربون كوبًا صغيرًا من اللبن الرائب، وحينها يحرك البائع قاع الجرة ليثبت كرمه وهو يسكب لهم الكثير من الخثرات.

وهكذا، في الصباح والمساء، تنتشر هذه الفرق الرثة في المدينة عائدة بما تيسر من طعام لإضافته إلى طبق الأرز الذي تقدمه الحكومة. يا له من حزن في نظراتهم، ويا له من إحباط في مشيتهم، ويا له من بؤس يكسو كيانهم المتألم! يضحكون أحيانًا، لكن وجوههم تظل صارمة. ومع ذلك، فهم ككل جنود العالم، متسكعون وفضوليون، يتوقفون عن طيب خاطر حول دوائر الجمال الراكعة على الشاطئ. لكنك تلمح على وجوههم حينها شعورًا بالخجل، فهم يبدون أكثر رثاثة وسخافة بملابسهم الضيقة والممزقة مقارنة بالبدو الفقراء القادمين من فزان، الذين يتلفعون الحولي الممزق بكرامة.

أما أصحاب الرتب، فيبدو مظهرهم أكثر أناقة، ويمكن تمييزهم بشريط ذهبي حول العنق، أو بمثلث قماشي رشيق على الذراع ينتفخ مع الريح كشراع صغير.

وكان الضباط الأتراك أكثر تنوعًا من الجنود. منهم طوال القامة، نحيلون، ذوو أفواه قاسية، يرتدون معاطف رمادية طويلة تزيد من طول

قاماتهم، وتحت زيهم الشحيح بالذهب، يتقاطع سيف منحني طويل. وآخرون يبدون كخريجي المدارس، صغار الحجم، ضعفاء، ملامحهم حادة، يهرولون بجدية ورؤوسهم مرفوعة بازدراء تحت الطربوش، بينما يجعلهم سيفهم الكبير يبدون كالأطفال. يرتدي معظمهم نظارات داكنة تضفي عليهم مظهرًا بيروقراطيًا منفرًا. لا تسمع بينهم ضحكًا، ولا تلك المرح الصاخب الذي يميز ضباط أوروبا بعد وجباتهم. يبدو أنهم مهمومون بالضيق، ويسبحون الله بمسبحاتهم.

وكل مساء عند الغروب، يضج الشارع المحاذي لقلعة الباشا بحركة الجنود وهم ينقلون الحطب. يخرجون من الترسانة حاملين على أكتافهم جذوعًا ملتوية، ثم يختفون في زاوية من القلعة تحت قوس مظلم موحش. صرخات، ونداءات، ومزاح، وفوضى! الأكثر ذكاءً منهم يكدسون أحمالهم على عربة صغيرة يندفعون بها كالإعصار، تصدم المارة وتختفي تحت القوس بصرخات هجوم. وفي الليل، يتجولون في المدينة كعصابات صغيرة، يتصارعون ويدفعون بعضهم البعض بوحشية، فيتراجع العرب بأدب ليتركوا لهم الطريق، دون أن يتنازلوا عن النظر إليهم.

في سوق باب الخندق، الذي يقام بشكل دائم عند تقاطع الشوارع الجديدة، ترى مشهدًا آخر. لم أعرف له اسمًا خاصًا، فكنت أسميه «سوق الخبز»، لكثرة الطاولات المحملة بأرغفة الخبز الصفراء التي تشبه العجة، وبعضها بني متشقق كخبز الريف. خلف أكشاك الخبز، تنتشر خيام صغيرة يحتمي فيها الباعة من الشمس. من المثير للاهتمام كيف تتدرج الخيمة من قطعة قماش كبيرة إلى مجرد حصيرة مقوسة بقصبة يلتف تحتها زنجي.

هناك ترى بائعي الخضار يجلسون القرفصاء تحت أكواخ من القش، وبائع الرؤوس والأحشاء يعرض بضاعته على شبكة واسعة، ويهزها بين الحين والآخر ليطرد الذباب. وبجانبه، يجلس بائع منتجات الألبان والتمور، ويداه لا تتوقفان عن تقليب التمر وتحريك أواني اللبن الرائب.

وعلى مقربة، يبيع زنوج «الكباب»، وهو قطع صغيرة من لحم الضأن والكبد مشوية على أسياخ من القصب. تصدر صوت أزيز وتدخن فوق فرن عربي ينفخ فيه البائع بفمه ليشعل النار. كنت آكل منه كثيرًا، وكان الزنجي يعرفني، فيقدم لي وسادة حمراء ويختار لي أفضل سيخ، بأصابعه المليئة بالشحم، ويرش عليه الملح والزعفران.

في الصباح، يفترش بائعو الخردة الأرض، ويعرضون أشياء لا حصر لها: بقايا بنادق، مسامير، صدأ، وقطع مهملة. لكن المشهد الأكثر إثارة للإعجاب هو مشهد الفلاسفة القدامى الذين يجلسون أمام بضاعة لا تتعدى منجلاً أو مفتاحًا أو زجاجة فارغة، ويقضون الصباح في تأمل عميق، لا يقطعهم حر الشمس، كأنهم غارقون في فراغ الفكر المطلق.

مع اقتراب المساء، يظهر بائع المزامير المزدوجة، القادمة من فزان، ويعزف ألحانًا تجذب الناس حوله. وعندما يُرفع الأذان، تبدأ الحركة في السوق بالهدوء. يجمع التجار بضاعتهم، بينما يتركها آخرون في أكواخهم لليلة. وعندما تُغلق أبواب المدينة، ترى الباعة يجلسون القرفصاء في زاوية من السور على فتحات صغيرة، في مشهد مبهج وهم يقضون حاجتهم مع غروب الشمس.

يتألف حي «سوق الحدادين» الجديد من أربعة شوارع متوازية، ترسم استقامتها منازل متباعدة مطلية بالأبيض والوردي والأزرق، تتخللها جدران بيضاء تفصل بينها مساحات من الأراضي الخالية. أما منازل الضباط الأتراك، فتتميز بهلالين أحمرين من الخشب المنحوت فوق أبوابها، يبدوان من بعيد كمخالب عقرب وحشي.

في هذا الحي، تنتشر مستعمرات غريبة من الزنوج، يعيشون في قرى من الأكواخ المبنية على الطراز السوداني. بعض هذه الأكواخ تأثرت بالعادات العربية، فأصبحت هياكل مركبة، نصفها من القصب ونصفها من خرق الخيام. تحيط بهذه الأكواخ ذات الأبواب المنخفضة والأسقف المقببة، أسوار دائرية من الحصير لحماية خصوصيتها من فضول الجيران. إحدى

هذه القرى مكتظة بالسكان، تعج دائمًا بالأطفال والفتيات، والرجال طوال القامة الذين ينحنون ليدخلوا مساكنهم، في مشهد يثير الدهشة حول كيفية اتساع هذه المساحات الصغيرة لأجسادهم الكبيرة.

تؤدي الممرات الضيقة بين الأكواخ إلى منخفض في وسط القرية، عبارة عن بركة طينية تغطيها الأعشاب، تركتها إدارة الطرق التركية المهملة دون عناية. ولا شك أن السكان يحبون هذا المشهد الذي يذكرهم ببلادهم: مرج رطب ودافئ على أرض خصبة. أمام أكواخ الزعماء، ترتفع أعلام حمراء وبيضاء على سوارٍ منخفضة. وتجد هنا وهناك خيوطًا من الأقمشة الملونة وشرائط ممزقة معلقة على شجيرة شائكة، أو مجمعة عند حافة بئر، وهي قرابين يقدمها السكان للقديسين أو لآلهة الماء الغامضة التي لا تزال حية في قلوبهم.

طوال اليوم، لا تتوقف الحركة بين هذه القرى والآبار القريبة على حافة الواحة. تذهب الفتيات السوداوات لجلب الماء، حاملات على أكتافهن جرارًا طويلة، أو قدرًا حديديًا على رؤوسهن، يمسكنه بكلتا اليدين المرفوعتين برشاقة. وخوفًا من تبليل ملابسهن، يخلعنها بسهولة في الطرقات الهادئة، كاشفات عن صدورهن الشابة والصلبة. فليس لدى نساء طرابلس ذلك الخوف من العري الذي يسيطر على الأوروبيات والعربيات. بل على العكس، يجد الزنوج والزنجيات فرحًا في التحرر من ملابسهم، وكأنهم يستعيدون عادة قديمة موروثة. فهم يعتبرون الزي ترفًا وزينة، وليس ضرورة، وهذا واضح في مساكنهم المنتشرة في واحة النخيل، تلك المدينة الأخرى التي تتعرج تحت ظل السعف الهش.

على حافة سوق الحدادين، تبدأ منطقة خالية من النخيل، أرض متعرجة تتناثر فيها القبور من كل العصور، جديدة ومهدمة، ينبثق العشب بقوة من شقوقها. تحف أشجار التوت القديمة الطريق الرملي، وتتناقض خضرتها النضرة مع اللون الأخضر الباهت لأشجار النخيل المجاورة. ثم تبدأ غابة النخيل الرائعة، حيث تتراص الأشجار بكثافة،

لكن ظلها لا ينسج معطفًا كاملاً أبدًا، فالسعف المتمايل يترك فسحات محترقة تخترقها أشعة الشمس.

يا لها من أناقة وهيئة لتلك النخيل وهي تصعد نحو السماء الزرقاء، وتنفجر عند قمتها في باقات من الرماح اللامعة! عندما تهب الريح، تتمايل رؤوسها برشاقة، وعندما يهدأ الجو، تتقاطع أغصانها في رسم هندسي بديع، ألهم بلا شك زخارف المآذن والمقرنصات في العمارة الإسلامية. أما جذوعها الخشنة، فتبدو كأفاعي بوا عملاقة واقفة تهضم فريستها.

تحت ظلال النخيل، تنمو أشجار التين والمشمش والبرتقال، التي تفوح منها في أبريل روائح قوية، تفاجئك عند كل منعطف. يا له من متعة أن تستلقي في زاوية حديقة، تحت هذا الظل المتحرك، وتشاهد الحياة تدب في الواحة! من فوق الجدران القصيرة، لا ترى سوى رؤوس المارة: قلنسوة بيضاء، شاشية حمراء، أو وجوه الزنوج، أو رؤوس الأطفال المتأرجحة على ظهور الحمير.

تُغطي النساء العربيات وجوههن بسرعة عند رؤية غريب، بينما تفعل الزنجيات ذلك ببطء، في محاكاة للياقة. سكان الواحة، معظمهم من السود والمولودين، مهذبون وودودون. وجوههم ذكية وعيونهم حية، بعيدًا عن الصورة النمطية الكاريكاتيرية. مشيتهم ساحرة على الرمال النقية، ووجوههم هادئة ومبتسمة. النساء ملفوفات بأغطية طويلة، ومشيهن يشبه سير الآلهة، حيث تثير أقدامهن سحابة من الغبار خلفهن. بعضهن يغزلن وهن يمشين، في إيماءات فنية رائعة وسط هذا الديكور الفخم.

ومن بين كل طرق الواحة، يظل طريق لبدة هو الأروع، وكأنه أُعد لعودة منتصرة. يمتد برماله الناعمة بين أعمدة النخيل الشاهقة التي تعكس صدى البحر القريب. لا تسمع فيه سوى حفيف السعف، أو صرخة بائع الحطب، أو غناء الزنوج وهم يبنون كوخًا جديدًا. على بعد كيلومترات من طرابلس، تمتد الواحة إلى ما لا نهاية، متلألئة تحت السماء

بظلال زرقاء تجري على بحر القمم، على حافة البحر الآخر.

لكن يجب أن تذهب إلى هناك، على طريق لبدة، عشية الأسواق الكبيرة؛ يجب أن تراها حية بقوافل الجمال والحمير الصغيرة التي تثير غبار بعضها البعض، دون أن تمنحه الوقت ليعود ويهبط. تجلب الجمال لفائف من السجاد والحصر، طويلة جدًا، على كل جانب: حمولات من الأمفورات الفارغة، تصدر صريرًا تحت شباك؛ بكرات آبار سوداء وضخمة، أكياس من الحبوب ملقاة عليها كأجساد، جذوع نخيل مشقوقة إلى نصفين للبناء، أكوام من السلال الجديدة، أحجار في سلال مزدوجة، التي تُقرن حينئذٍ بقضيب عرضي يوضع على السنام، وتعطي الحيوان مشية بهلوان. صغار الحمير، التي تُحث بـ «فوس، فوسوس»، توازن جرتين مليئتين بالزيت، فوهتهما مغلقة بعناية: الزيت المباع في طرابلس يأتي بشكل خاص من الساحل الشرقي، من ضواحي لبدة، مصراتة، ومختار. صانع أكياس سحب المياه - «القربة» الكبيرة ذات الفوهة الجلدية للآبار، علقها، من خرطومها، ببطن الجمل، كرؤوس فيلة مترهلة. أولئك الذين يشعرون بالراحة على سروجهم، وأيديهم حرة، يتخذون جميعًا نفس الوضعية: العصا ذات المقبض المنحني، المستخدمة هنا، آخر صيحات لندن، منتصبة أمامهم على المقبض، وبما أنهم لا يتخلون أبدًا عن الجدية العربية، يبدون كملوك يحملون صولجاناتهم. أولئك الذين يتبعون الجمال المحملة سيرًا على الأقدام، يشترون وهم يمرون، لوجبة المساء، أرغفة خبز صغيرة بالزعفران من خباز زنجي، معزول على الطريق، أمام القبة المخصصة لـ «صديق الله»، القوي سيدي علي بن جابر، - عائلات بأكملها، قادمة من بعيد، في عدة أيام؛ عجائز كإبراهيم بلحى بيضاء، يمشون بخفة كالشبان؛ أطفال جادون بالفعل، مطلعون على حيل الأسواق؛ جميعهم مسلحون ببنادق عالية، أحيانًا اثنتان متقاطعتان في الظهر، بمقبض مطعم بالعاج بشكل فج. بعضهم يحمل، مربوطًا حول عنقه، خلف البرنس، سيوفًا واسعة النصل من زمن القديس لويس،

انتهت بين أيديهم، - بعد أي تقلبات.[2]

تتقلص الطرق الرملية الجميلة في الواحة، المتشابكة في المركز، نحو الحافة، إلى بعض الاتجاهات الأكثر بساطة. الأكثر أهمية محاطة بمنازل بيضاء ووردية، كلها منخفضة، مجمعة في قرى حول مئذنة مسجد صغير، - جامع مصران، يملؤه ضجيج مدرسة، جامع جديد، شرفاته مزينة بصناديق زهور. مع اقتراب آخر أشجار النخيل، تتضاءل المنازل أكثر فأكثر؛ تبدو كأثاث بسيط من الطين الأحمر موضوع على جانب الطريق، فقر أو كسل البنائين، أو عادة الاختباء تحت الأكواخ. أشجار النخيل القصوى نصف مدفونة بمد الرمال التي تنتفخ أمواجها، المروضة دون أن تتمكن من الهبوط، بينها كما لو كانت تحت سياج. ومع ذلك، هناك من تهبط وراء الحاجز الصلب الذي شكله الزمن حول الحدائق، وتندفع ضد جدران الطين الجاف الضعيفة وتتكسر على الجانب الآخر على حقول مزروعة. يُعرف أثر هذه الضربات الرملية بحقل لا يزال يخضر تحت بذوره الرملية، بمنزل مدمر، بنخيل مدفون يلامس سعفه الأرض. الريح تقطع باستمرار قمم هذه الحواجز الرملية، وتحمل الأبيض الذي يطير بسهولة، وتترك عروقًا حمراء أقل حركة عارية. عندما تجلس عليها، تسمع فيها، بعد بضع دقائق، أصواتًا غريبة، كـ «صرخات» مكتومة. سطحها، ناعم الملمس، يشبه المخمل، أو موجة دهنية، مرصع بنقوش متعرجة في كل اتجاه: هذا هو عمل الخنافس السوداء التي نراها تخرج فجأة من مكان نظيف، وتسرع، تتسلق، وتغوص في انهيارات رملية تاركة علامات أرجلها. يمكن تسمية ساحل طرابلس بالبلد الأحمر.

رمال الطرق، التربة الطينية التي تصنع منها الجدران، الامتداد الشاسع للتلال خارج الواحة، نمل الأسد في أقماعه: كل شيء أحمر، بهذا اللون المعروف جيدًا لـ «طرابلس» للتلميع. أحمر أيضًا أكثر من برونزي هو جلد القرويين الذين يأتون من بعيد بجمالهم، التي شعرها أكثر حمرة

2-سيف الطوارق (تاكوبا، تيكوباوين) ليس سوى تقليد له.

من أي مكان آخر. وأخيرًا، تأخذ قمة السماء غالبًا، فوق شريط من الأفق الأزرق المضعف بظلال ليمونية، لونًا أحمر كحريق بعيد؛ السحب العاصفة المحلية التي تتشكل، كثيفة، مقطعة بعمق، تحمل في الهواء وهجًا أحمر بنفسجيًا، وبروقًا برتقالية قصيرة، تعطي الضوء المنتشر لونًا محمرًا مقلقًا، كما لو أن المنظر قد وُضع فجأة تحت زجاج ملون. بعد المطر، تمتلئ طرق الواحة وأسيجة التين الشوكي (تين البربر) بالضفادع الصغيرة، المرقطة بالأحمر على ظهرها وبطنها، والتي عادة ما تبقى في الأحواض المبنية بالحجارة بالقرب من الآبار. إنها متعة الأطفال السود أن يركضوا وراءها؛ وبما أن الزنجي كريم جدًا، فإنهم يجلبون لك من هذه الحيوانات الصغيرة، ويضعونها في يدك كرهن لصداقتهم الصغيرة. في الربيع، يشهد السماء معركة مستمرة بين الريح القادمة من الرمال وتلك التي تهب من البحر. كل يومين أو ثلاثة، في المتوسط، تقفز من الجنوب الشرقي إلى الشمال الشرقي؛ تحل نفحات الهواء الدافئ محل تيار جاف وبارد. للتحذير من التغيير، يكفي ملاحظة كل هذه الوجوه الداكنة المصابة بالتهابات، ومغطاة بشكل غريب بعصابة ذقن ملونة. بدلاً من السحب العاصفة الصاعدة من الحمادة، يمتد حجاب من الأبخرة الرمادية، حيث تتدلى سحب بلا شكل، ليست كثيفة أبدًا لدرجة أنها تخفي تمامًا زرقة السماء الشفافة. وبالمثل، غروب الشمس خاص. يرسل في منتصف النهار نيرانه الصافية، ويتضبب شيئًا فشيئًا وهو يميل، ويقطع الغرب الأحمر الكرزي بسهام طويلة بنفسجية صارخة. يمكن النظر مباشرة، على الرغم من ارتفاعه، إلى قرصه الذي أصبح أحمر نحاسيًا، كما يحدث في فرنسا، في شهر ديسمبر، عندما تدور شمس كريمية بلا أشعة في سماء ثلجية. بعد فترة طويلة، تمر صعودات من الأبخرة البرتقالية والوردية على الغروب وتجعل السماء تتخثر عند قمة الرأس. هذه الجوانب من سماء ضبابية، مختلفة جدًا عن تلك التي نراها في الصحراء على نفس خط العرض، ناتجة عن ضباب البحر والدوامات الهوائية في سرت. تتأثر الفاكهة بهذه

الرطوبة: تمور طرابلس، صغيرة وجافة، ممتازة بمجرد قطفها، لا تُحفظ. تمور فزان، أصغر حجمًا، متقزمة، قاسية، بلا عصير، تحمل علامات هذا المناخ، المحروق والرطب بالتناوب، حمراء من جانب، داكنة من ضربات الشمس، بيضاء من الجانب الآخر، بياض مرضي. يضطر التجار إلى تقليبها باستمرار حتى لا تفسد. برتقال طرابلس، الشهير (خاصة «الدمي»، أو الدموي الذي يحتوي لحمه القرمزي على عصيروفير)، لا يمكن تصديره، لنفس السبب. يفسد في الصناديق أثناء الرحلة. بما أن كل أجنبي يظهر هنا معرض للتعاطف العنيد من مواطنيه، فقد اضطررت إلى تحمل تذمرات مارسيلي أرسل إلى فرنسا مئات من البرتقال والليمون وتلقى إشعارًا بوصولها فاسدة! ومع ذلك، أكد لي تاجر تركي مثقف من سالونيك، يقرأ صحيفة «لو تان» ويجد فيها مقالات «بيزميست» (متشائمة) عن تونس، أنه أرسل منها برتقالًا ممتازًا إلى باتوم، ولكن بشرط ألا يأخذ إلا برتقال أكتوبر ونوفمبر وديسمبر. اعتبارًا من يناير، يفسد.

أحب أن أستجوب الناس الذين تبشر وجوههم المنفتحة بصدق أسهل. راعٍ عربي عجوز، وجهه ليس سوى نتوءات عظام وأخاديد عضلات جافة، يحدثني عن فزان؛ لكنه يعود باستمرار إلى أربع أو خمس إجابات تلخص كل أفكاره عن هذا البلد: «فزان، من هناك!... يقول، وهو يحدد الاتجاه ويقطع الهواء بحركات متقطعة صغيرة بيده، - من هناك. أتعرف جيدًا المسافة بين زوارة وبنغازي؟ حسنًا، فزان «تمتد في الجنوب بنفس العرض». وكم يومًا من السفر للوصول إليها؟ - «ثمانية عشر، بالجمل»، يجيب دون تردد. - «ثمانية عشر؟ لكن إذا ركبت حصانًا؟...» - «تسا، تسا، اسمع جيدًا، اسمع...» وهو يتحرك ليجعلني أفهم شرحًا صعبًا جدًا: «إذا ركبت على الجمل، تسافر قليلًا، قليلًا، لكن كل يوم؛ إذا ركبت على الحصان، تذهب أسرع، لكن يجب أن يستريح كل ستة أو سبعة أيام، لأن الحصان ليس لديه بطن (الكرش) الجمل، وتفقد الوقت، وفي النهاة، الأمر سيان، سواء، الأمر سيان.» هذا السهل الواسع المتموج الذي

يعتقد المرء أنه كله رمال حتى السودان لا يستمر، كما يقول، سوى «أربع ساعات سيرًا على الأقدام، بالجمل». - بعد الرمال، تجد الطين (والتين). - وبعد مرزق؟ (إنها عاصمة فزان). بعد؟ - بعد؟ يجب أن تسافر ثلاثة أشهر. ثلاثة؟ (الآخرون قالوا لي دائمًا شهرين). نعم، ثلاثة أشهر، وتصل إلى بورنو، بلاد السودان، بلاد السود. - يعبس عندما أتحدث معه عن مرزق: - «الكثير من التجارة في مرزق، الكثير في فزان؛ لكن الحرارة الجافة (الحر)، الحمى، جميع أنواع الأمراض؛ بينما في طرابلس، مدينة جيدة، مدينة بائعة؛ الماء جيد، الطعام جيد، الهواء جيد ولا توجد أمراض.» إنه أحد الرجال القلائل الذين التقيت بهم، راضٍ عن المكان الذي يسكن فيه. شاب عربي يعمل في التلغراف الإنجليزي يحتقر طرابلس، مسقط رأسه، لأنه لا يوجد فيها عمل. زنجي فقير في العشرين من عمره، وصل من مصراتة (على ساحل سرت الكبرى)، هزيل من السفر، وخدوده شاحبة من الجوع تحت بشرته السوداء، يغضب من طرابلس التي يسميها «أسوأ مدينة على وجه الأرض» لأنه يوجد فيها عمل أقل من مصراتة. على النقيض من ذلك، زنجي من بورنو، التقيته في تونس، كان يتحدث عن جزيرة جربة وطرابلس بإعجاب: «هناك، تجد الزيت، الأغنام، النخيل، العمل؛ هناك فلوس (ليرات، نقود)، بينما في تونس! مدينة ميتة! ليس عليك سوى النوم؛ لا عمل...» في باجة، بالقرب من تونس، عرفت أيضًا امرأة من مواليد طرابلس، لكن من أبوين إيطاليين، كانت تصرخ: «باجة؟ ماذا تفعل في باجة؟ لا شيء. تونس، آه! مدينة جيدة، تونس، وطرابلس إذن، أفضل المدن جميعًا! كل شخص لديه فلوس (كنا نتحدث بالعربية، ولم نتمكن من فهم بعضنا البعض بلغة أخرى)، كل شخص غني؛ لا يوجد فقراء في طرابلس.» وهكذا، تذكرت فيما بعد أوصاف سيدة باجة، وكنت أبحث عن الشوارع المرصوفة بالعاج، وأتعجب من أن جميع المقاعد لم تكن محشوة بريش النعام.

لا يعرض التجار في طرابلس البضائع الثمينة القادمة من السودان،

بل يخفونها داخل متاجرهم. ولهذا السبب، تصبح الشوارع التجارية مظلمة تمامًا في الليل. لا تضيئها سوى فوانيس قليلة متباعدة، مما يجعل من السهل الاصطدام بالمارة في الظل. كما تزيد مواكب الجمال التي تمر في الأزقة الضيقة من صعوبة الحركة، حيث تتجه لتفريغ حمولتها في المتاجر. لذلك، يجب على من يتجول ليلًا في شوارع طرابلس أن يكون حذرًا.

ومع ذلك، ليست المدينة مهجورة في الليل؛ بل يتحرك فيها جيش من الجنود، يستقرون في الظلام عند التقاطعات وفي مراكز الحرس المشددة. تصطدم بدوريات تجوب الشوارع بخطى متسارعة، فرق من البائسين ذوي الطرابيش القذرة والأسلحة اللامعة. بوابة البحر، التي كانت تعج بالحياة نهارًا، تفتح مصراعيها جزئيًا، ويغلق قوسها الجنود الذين يمنعون الدخول والخروج. يخال المرء نفسه وسط جيش يعسكر في ليلته الأخيرة قبل معركة الغد.

أمام حاجز الحراسة الذي يحجب رؤية البحر، يسهر الحراس وأسلحتهم على أذرعهم، ويبدو أن الأوامر تقضي بمراقبة الشارع والبحر على حد سواء، فهم يتحركون لفحص أي مارٍّ يمر تحتهم. أحيانًا، يصعد عربي الدرجات الخمس المنحوتة في سمك الجدار، ليلقي نظرة من فوق الحاجز الذي تضربه أمواج ثقيلة محملة بالنفايات.

في الميناء الخالي من الأضواء، لا يظهر سوى الوهج الضبابي للبوارج التركية وبعض القوارب النائمة. وراء حلقة الصخور الواقية، تظهر أمواج الزبد وتختفي كأشباح زرقاء، بينما تحمل الرياح أصداء أبواق الأسطول. ويقف الحارس القلق، الذي اعتاد الخوف من مفاجآت هذا البحر الأسود، منحنيًا، محاولًا اختراق الظلام الذي يهدر تحت السور. في الماضي، لا بد أن الخوف كان مشابهًا من أساطيل السفن القديمة التي كانت تتسلل تحت أسوار المدن المظلمة.

ومن جهة الترسانة، تنطلق أصوات أبواق أخرى عدة مرات في الساعة، حتى بعد أن يرفع المؤذنون أذان العشاء من على المآذن. وهنا،

يُغنى الأذان بدلاً من تلاوته، على لحن رقيق يذكرنا بما نقله فيليسيان دافيد في «الصحراء». وبالقرب من قلعة الباشا، في الشارع المحروس، تنعكس الفوانيس المضيئة في زجاج الأكشاك الترفيهية، بينما تمنع الجدران الرمادية للحصن سماع صدى البحر. ويتم تفتيش العرب الذين يدخلون المدينة في هذه الساعة بدقة أكبر.

وفي الأمسيات الرطبة، أو الليالي المرصعة بالنجوم، يخرج بعض الموظفين والتجار البارزين للتنزه. يرتدون الطربوش الأحمر مع ملابس أوروبية قديمة الطراز، أو أردية حريرية طويلة تحت معاطف سوداء. يسبقهم خدم يحملون فوانيسهم، فيبدو هؤلاء السادة، بأجسادهم الضخمة وهم يدخنون سيجارهم، كجنود متمردين يسوقهم عريفان إلى غرفة العقوبة.

من الممتع عبور الواحة بعرضها الكامل، للوصول إلى حاجز الرمال المتراكم عند أطرافها. من هناك، يتأمل المرء السهل المحمر الشاسع الممتد في كل اتجاه، متموجًا كبحر من الرمال. في الأفق البعيد، تظهر سلسلة جبال الحمادة كخط أزرق باهت. ولكن هناك أيضًا يبدأ بلد من الغموض، طرق طويلة بالكاد استكشفت، تتفرع إلى واحات مجهولة الاسم، طرق غدامس ومرزق وما وراءها من مدن أسطورية قرب بحيرة تشاد.

مستلقيًا على قمة تلة، تحت إزعاج الخنافس السوداء، في صمت لا يقطعه سوى نفحات الريح الحارة ونباح الكلاب وأبواق الجنود الأتراك، يحاول المرء أن يخمن ما وراء تلال غريان، وأن يخترق بصمت السماء والأرض. لكن التلال الكئيبة، الخالية من أي أثر للحياة، تستمر في تموجها بلا مبالاة. وفقط عندما تتشكل السحب وتمر عاصفة، ينبثق غبار أصفر من قممها، كأن أصبعًا خفيًا ينقرها جميعًا في آن واحد.

نادرًا ما يظهر إنسان وحيد في هذا الامتداد الشاسع. لكنك ترى قوافل الجمال، «الإبل»، ترتفع ببطء على المنحدرات، ثم تختفي في المنخفضات، لتظهر من جديد وهي تحمل حزمًا ضخمة من الحلفاء، فتبدو من بعيد

كحيوان أسطوري ذي ألف رجل يلتوي على الرمال.

يحمل سائقو هذه القوافل على ظهورهم بنادق طويلة جدًا، ذات أخمص خشبي مطعم بالعاج السميك. ومن النادر جدًا رؤية أوروبي في هذه الطرق المنعزلة، لدرجة أن القوافل الصغيرة التي كانت تمر بالقرب مني، ما إن تراني على الكثبان الرملية، حتى تنحرف قليلاً نحوي. فالاقتراب، في هذا البلد غير الآمن، يتم دائمًا بحذر، وبتردد يشبه الدوران حول فخ. وكانت وجوههم الحمراء، التي تعلوها فوهات بنادقهم الطويلة، تستجوبني:

- «إلى أين أنت ذاهب وحدك؟»

- «أتجول، أتأمل...»

- «أتجول!... آه! إذن أنت تاجر كبير؟»

وعندما كنت أجيب بأنني قادم من تونس، كان السؤال يطرح على الفور: «هل سيأتي الفرنسيون إلى طرابلس؟» وبعضهم، الأكثر بساطة، كانوا يستنتجون من رؤيتي مباشرة: «إذن الفرنسيون قادمون لاحتلال طرابلس؟ أم الإيطاليون؟»

تُظهر هذه الأسئلة الحالة الذهنية التي يعيشها سكان طرابلس. فالقلق الذي يشعرون به تجاه بعضهم البعض على الطرق، يتضخم ليصبح مخاوف من هجمات أعداء أشد خطرًا. ومع ذلك، ربما يكون فضول هؤلاء القرويين أكبر من خوفهم الحقيقي، إذ تبدو لا مبالاتهم كاملة تجاه جنسية حكامهم. لقد كان لدى الأتراك في طرابلس ما يصل إلى ثلاثين ألف رجل خلال حملة تونس، ولا يزال هناك حوالي اثني عشر ألفًا، ليس فقط لحماية البلاد من محاولات الأوروبيين، بل أيضًا لفرض الاحترام على إخوانهم في الدين، العرب.

سواء كانوا أتراكًا أم فرنسيين أم إيطاليين، لا يبدو أن لديهم أي نفور خاص. بل ربما يفضلون المجهول الذي يمثله الفرنسيون أو الإيطاليون على الأتراك المعروفين بسوء معاملتهم. أما في المدينة، فلا يوجد تفضيل شعبي إلا للإنجليز، لأنهم اشتهروا بكرمهم في دفع الأجور.

ولكن، في النهاية، ما أهمية كل ذلك للقلوب المسلمة حقًا؟ فهؤلاء لا ينتظرون سوى صحوة الوطن العربي، الوحيد الجدير بولائهم، وشرعية خليفة تنتصر به راية الإيمان.

أبواب تونس

لأبواب تونس سحرٌ متفرّد. كثيرًا ما يكون اجتياز الأزقة الملتوية والممرات المغلقة المحيطة بها أمرًا عسيرًا، ثم يحدث فجأة، عند عبور قوس الباب، أن ينفتح أمام العين ريفٌ أخضر صافٍ، وحقول ومروج فسيحة تستريح بانسياب على منحدرات رقيقة، من دون ذلك المظهر المقطّع والمشوّه الذي يميّز المزروعات المحيطة بالحواضر الكبيرة. في كل مرة كنت أختبر نشوة خفيفة، لنعمة العثور بسرعة مذهلة على الهواء الفسيح والامتداد الواسع بعد عطن الأحياء الفقيرة. هنا، هو الريف نفسه الذي يتقدم نحو الأسوار، كما يتقدم البحر نحو أطراف الأرصفة، ليصطدم بها. لم تذر تونس خارج أسوارها تلك الأكواخ الضاحيوية التي تمتد بلا نهاية في بلدان أخرى بمحاذاة الطرق.

لا نرى إلا حانة عند باب الخضراء وأخرى عند باب سعدون، وهما أكثر الأبواب حركةً شمالًا وشمال شرق، لأن الأول ينفتح على طريق المرسى وحلق الوادي، والثاني على طريق الباردو. الخروج من أي باب يحمل طابعًا جادًا، شبه كئيب، وسط مقابر مدمّرة متراكمة حول الأسوار. قبور، تجمعات من القبور، كل منها أشبه بنموذج مصغر لبيت ذي سقفين، هي الضواحي الوحيدة التي أبقتها تونس منذ قرون خارج أبوابها. وما إن غرست أسوارها في الأرض، حتى لم تعد بحاجة منذ زمن طويل إلى كسر هذا الطوق الصارم. تلاشى النشاط الداخلي، ويظهر ذلك بوضوح على الوجوه: لا أحد يبدو مشغولًا، والكلّ يتصرف بسلوك المتسكعين. حتى عند أكثر الأبواب ازدحامًا، لا تشاهد تلك الحشود المتدفقة من الداخلين

والخارجين التي نرى مثلها في الجزائر، أو حتى في طرابلس الغرب. كما أن هذه الأبواب الضخمة، الأوسع من ارتفاعها، تبدو مصممة لسكان مطمئنين، يتذوقون حياة هادئة، وفوقها شرفات حجرية ضخمة يعلوها العشب من الإهمال، وفي فتحاتها مدافع معطلة، كثيرًا ما تكون مقلوبة على محاورها، وقد نبت على فوهاتها عشب هزليّ الشكل.

كنت أرتاد كثيرًا باب الخضراء، المفتوح تقريبًا باتجاه قرطاج. بُني، مثل سائر الأبواب، من حجارة كبيرة مشربة بحمرة الشمس، تفصلها خطوط أكثر بياضًا. يتشعب قوسه ليضم مدخل شارع آخر، شديد البياض، شديد الانخفاض والطول، هو شارع سوق بالخير المؤدي إلى ساحة الحلفاوين، المزدحم إلى حدّ أن كثرة ممراته المسدودة تجعله أشبه بمفتاح خزنة. وهكذا تتدفق انعكاسات الضوء القوية جانبًا تحت قوس الباب، وتعلو الضجيج حظيرة دجاج مثبّتة في قوس صغير لا تهدأ عن الضوضاء. في الخارج مباشرة، ساحة ضيقة ذات تراب رمادي مداس، كثيرًا ما يغدو موحلًا قرب حوض ماء ترد إليه الحمير المحمّلة بأثقال متنافرة لتشرب. أبعد بقليل، عند بدايات الطرق، قبتان عظيمتان تبدوان كأنهما بالونتان محبوستان في البناء. ثم تمتد المقبرة، تلك المقبرة الأبدية التي تحيط بتونس، وقد أُحيطت هنا بجدار قصير سرعان ما ينقطع، فتنتشر القبور على التلال بلا حدود. كانت لتغيب تمامًا في هذا الفصل (الربيع) تحت الأعشاب الطويلة، لولا شارع جديد فُتح حديثًا بمحاذاة الأسوار، يخترق شواهد القبور ويرتفع تدريجيًا فوقها. في الصباح والظهيرة، يكاد هذا الشارع، ومعه باب الخضراء، يخلو من الناس. لا يظهر شيء حيّ سوى صف الأشجار المزروعة على الطريقة الأوروبية، ترتعش أوراقها الدقيقة في الريح الدائمة القادمة من البحر فوق بحيرة تونس. هناك غالبًا مجموعات من الأطفال شبه العراة، يلعبون بحذر وبصمت تقريبًا، متوارين وراء غابات القراص عند سفح الجدار. ليسوا من أطفال المدينة، بل أبناء بعض البدو المخيمين بعيدًا في الحقول باتجاه باردو، تحت خيام رثّة.

وكما يُحجز آباؤهم خارج تونس بفعل حاجة غامضة إلى الحركة، يخضع هؤلاء الصغار لغريزة مماثلة تجعلهم يختارون فقط سفح الأسوار ملعبًا لهم. لم أرهم يومًا داخل المدينة. أعرف إحدى هذه العائلات الصغيرة؛ وما إن تراني حتى تقفز من بين الأعشاب وتتقافز نحوي طلبًا للنقود. لون بشرتهم العارية يشبه لون فرو ظباء صغيرة تلمح في الأدغال. أربعة دائمًا، لا ينقصهم أحد، ولا يرافقهم أي طفل آخر: فتاتان بين الثامنة والعاشرة، تلتف كل منهما بقماش قطني أزرق يهبط من الكتفين إلى الركبتين، لكنه يكشف بسهولة الصدر كله تقريبًا، والجسد كاملًا عند الجري. في آذانهن حلقات فضية ضخمة، هي زينة النساء الريفيات في تونس. الأخ الأكبر، في مثل سنّهما، يبدو شغوفًا بالقفز فوق القبور. أما الأصغر، ابن الأربع سنوات، فهو عار تمامًا من الأمام، لكنه يجرّ خلفه، شبه ساخر، معطفًا أوروبيًا بلون العجين. وهو دائمًا أول من يتقدم إليّ. تقول أخته الكبرى وهي تتنهد: «مسكين، إنه فقير جدًا.» لكنه يبدو سعيدًا مسرورًا بالحياة، غافلًا تمامًا عن معنى الفقر، حتى إن ملامحه المرحة تناقض كل محاولة لاستدرار الشفقة. وإذا طلبت الأخت لنفسها، تغيّر صوتها واتخذ نبرة ملحّة: «قرش لي أنا أيضًا.» فأقول لها: «لكن لديك حلقات فضية جميلة، أنت غنية.» فتضحك وتبدأ في العبث بي، تشدني وتراقصني، ولسانها يخرج كطفلة مشاكسة. عندها يصبح الآخرون فجأة جديين، ويهزون رؤوسهم، ويقولون إنها «مجنونة» أو أن «جنًّا» في رأسها. في كل مرة لأتخلّص من «الجنّ»، أدفعها نحو الخندق، فتهرب نصف ضاحكة ونصف خائفة، بينما يتخبط الأخ الصغير في معطفه كطائر بطريق يجر جناحيه. يا لهم من صغار فاتنين، جميلين في اقترابهم كما في ابتعادهم، تتلألأ الفضة عليهم، وتضيء ضحكاتهم أسنانهم اللامعة وعيونهم الحادة الصافية، ويحمرّ تحت بشرتهم السمراء خدّان نضيرتان. في كل مرة يغيبون فيها، أهمس لنفسي «إلى اللقاء»، وأحس بالأسف لأنني لم أُمعن النظر أكثر في خفة أقدامهم المغبرة أو في اللمحات السريعة لصدورهم الصغيرة المتحركة مع

كل نفس.

لا تبدأ المنطقة المحيطة بباب الخضراء في الازدحام الفعلي إلا قرابة الخامسة مساءً، عندما يشرع تجار الأسواق في إغلاق محالهم. عندها تظهر عربات الأجرة القديمة الطراز، لامعة بالنحاسيات، تقلّ العائدين إلى المرسى أو أريانة بعد يوم قضوه في تونس. تظهر أحيانًا حافلة لأريانة. بعض التونسيين يرتدون برانس فاتحة اللون، يجرون نعالهم الصفراء التي تصدر صوتًا مزدوجًا على الأرض والكعبين، بسيقان عارية، وأخرون يخفون سيقانهم الممتلئة بجوارب بيضاء نقية، لكنهم يرتدون برانس مهملة وعمائم مرتخية، يتجولون قليلًا ثم يجلسون على ألواح خشبية أو مقاعد مهترئة خارج باب الخضراء، مستندين إلى الجدار. يجلس على هذه المقاعد موظف الجمارك طوال اليوم. وفي أبريل، تجتمع مجموعة من اليهود الأصدقاء يوميًا تقريبًا، يتحلقون في دائرة حميمة، يوجه كل منهم وجهه نحو الآخر، ويعزفون مقطوعة خافتة تسمع من بعيد كآلة موسيقية معدنية صغيرة. لا يتجمع حولهم المارة العرب، أولًا لعدم فضولهم، وثانيًا لأنهم يهود، فالمسلم لا يرى من اللائق أن يقف علنًا لمتابعة تسلية يهودية. وحتى الجالسون بالقرب منهم، يستمتعون بالموسيقى وهم يديرون ظهورهم. في أرقّ المقاطع، قد يصيح أحدهم بتحية لصديق مارّ. سواء توقفت الموسيقى أو استؤنفت، تبقى الوجوه على نفس اللامبالاة. لا يختلف الأمر عند مرور عربات فاخرة من باريس، تحمل أبناء مسؤولين أو يهودًا أثرياء يريدون قطع صلتهم بأسلافهم الفقراء، يمرون ممتلئين نضرين، بملابس احتفالية، في عربات مبطنة بالساتان الأصفر أو الأخضر الفاقع، بينما البغال تحتفظ بطوق نحاسي رفيع يصدر رنينًا لطيفًا. تمر العربات بكامل أناقتها، تثير غبارًا ذهبيًا على الطريق العابر للمقبرة، ثم تعود عبر باب بوسعدون.

لا أعرف إذا كانت الأشجار على هذا الطريق من الأكاسيا، لكن شارع الأكاسيا في تونس لا نشاهد فيه سوى سائقي الحمير والجمال، وباعة

الفحم المتجولين، قليل جدًا منهم من ينتمي للعالم الراقي. عند غروب الشمس، يقترب المتسكعون القلائل الذين تجولوا أمام الباب ويعودون، إنه وقت صلاة المغرب؛ يعلن المؤذنون عنها فوق المدينة. يذهب المسلمون إلى المساجد، جميعهم تقريبًا. يوجد مسجد صغير في زاوية باب الخضراء، مزخرف بالزنجفر والأخضر مع قيثارة بيضاء في الوسط، مفتوح جزئيًا في أيام محددة. يتسلل أصحاب البرنسات بصمت، وأحيانًا يبقى واحد أو اثنان خارج المدينة، فيختارون مكانًا نظيفًا ليسجدوا، متجهين نحو بحيرة تونس الملونة بانعكاسات السحب. لا ينزعجون حتى من الواجهة البيضاء للبازيليك المسيحية الجديدة في الأفق على تلة قرطاج. يستأنف الموسيقيون اليهود عزفهم تحت قوس باب الخضراء الهادئ، لبضع دقائق من همهمة أنفية مصحوبة بنغمات عود ودف.

على طول سور تونس، في الاتجاه المعاكس للبحيرة، يمتد سور كئيب بلا شرفات، رمادي ومرقع ببناء أحدث، لا يطل عليه أي برج كنيسة أو منزل داخلي، أمام باب سيدي عبد السلام، الذي يفتح قوسه على مساحات واسعة مبنية بشكل هزيل ومناطق مغبرة. يبدو أقل ارتفاعًا وعرضًا من الأبواب الأخرى، على الرغم من كبر حجارته، لأن قاعدته مدفونة في غابة من نبات القراص العملاق. يبدو الباب وكأنه مهجور من المارة؛ الشارع الضيق خلفه مستوٍ أبيض، مثقوب بأبواب صغيرة بسيطة في منازل منخفضة جدًا، بحيث تلتقي العين بشرفات على ارتفاعها. المنظور يظهر أبعد من ذلك واجهات زرقاء وصفراء ووردية بالتناوب، وأبوابها مزينة بمسامير كبيرة، ما يعيد سريعًا إحساس الشرق.

مرة أخرى، يظهر الجدار البارد، سيئ التجصيص، هش عند التقاء الأسس القوية للأبواب، ثم باب بوسعدون، الأكثر ابتذالًا ربما بسبب حانة على حافة الطريق، أو لانتظار عربات الأجرة السيئة. زبائنه من الناس الذين يذهبون ويأتون بين تونس وقصر الباردو، حيث يعيش مجتمع حزين من أصحاب المتاجر. نرى ركوب المسلمين العربات، واندفاع

النساء التونسيات الضخمات، أيديهن ذات أظافر صفراء، يسحبن حزمًا مربوطة بأوشحة زرقاء سماوية أو وردية فاتحة؛ حجابهن يعلق، عصابات وجوههن تتحرك، ونعالهن البراقة تتلمس الدرجات. عند غلق الباب، يظهر تكدس الحجاب، البرنس، الوجوه، والحزم المضغوطة، خليط من الخطوط والزخارف والألوان الناعمة تتصارع كألحفة.

من جهة الباردو، الريف محاط بقناة مياه قديمة، وراءها أفق الحقول المرتفعة بالسماء الزرقاء، تحمل حجارتها المحمرة من عمود إلى آخر بلا نهاية. عند باب سعدون ينتهي شارع الدوران الموازي، وطريق الباردو يبتعد فجأة عن الأسوار؛ يبقى عند سفحها طريق متعرج يصعد ويلامسها من جانب، ويمر عبر أخاديد على تلال صغيرة مرصعة بالقبور. هذا الصعود العاري يعيد العقل إلى رؤية الجلجثة كما في الصور لأعين الأطفال، بأرضها الباهتة وحجارتها الغادرة. الأعشاب الطويلة لحقل القبور قد تصل إلى الجدار، لكن لا نرى القذارة أو الأوساخ التي تشوه ضواحي المدن الكبيرة؛ بعض الجدران المنهارة والتلال المغطاة بالنباتات الكثيفة تكفي. القبور المهدمة أو المائلة تشكل فسحات ضيقة مرصوفة بالأبيض في العشب الأخضر.

هذا الجانب من تونس المواجه للغرب، بأسواره وحقوله، يعكس التساهل الإسلامي؛ السكان منجذبون نحو العظمة، لكنهم متقلبون في جهودهم، يبنون حصونًا مهيبة مرتبطة بجدران بسيطة، يعيشون وسط أنقاض وحصون مفتوحة وقبور مكشوفة وأراضٍ منهارة أمام الأبواب، دون خجل، معطيًا بذلك دليلًا على اعتقادهم بأن حياة هذا العالم لا تستحق سوى الازدراء. «فاعلموا، كما تقول آية من سورة الحديد، أن حياة هذا العالم لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم. وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يكون حطامًا. وفي الآخرة عذاب شديد».

الأبواب الثلاثة هناك—باب البنات، باب سيدي عبد الله، وباب

سيدي قاسم—تشارك في الحزن العام للمنظر الطبيعي. منتصف النهار، تحت حرارة الشمس، تبدو بيضاء على رمادي قذر لجدار الدوران، رغم محمرة حجارتها. هذه الواجهات المتباعدة تسود فوق الأرض العارية شبه المهجورة. المارة قليلون، السيارات نادرة، نادراً ما نرى سوى البغال والحمير، تظهر وتختفي بين تموجات الأرض. غالبًا يسير تونسي سمين ومعطر على بغلة مسرجة قديمة، مع تجهيزات كاملة من سرج ووسائد وشرائط للتمائم، عائدًا إلى منازله الريفية في منوبة أوزغوان، قرب بحيرة السيجومي.

حينئذٍ نتذكر صعود الجلجثة بوضوح أكبر، عند رؤية الفرسان المزخرفين بألوان زاهية، يشبهون تقريبًا ضباط الرومان المصوّرين على اللوحات حول الصلبان الثلاثة. من بين أبواب تونس، يظل باب البنات المفضل لديّ، فهو، رغم ازدحامه النسبي، أقل عمومية وأكثر حميمية؛ له متسكعوه الخاصون. أوه! يا لها من ساعات مسائية رائعة نقضيها هناك، جالسين على مقعد حجري مغطى بحصيرة يقدمها الجميع قليلاً للوافد الجديد، ليجد مكانه! إنه مقعد مراقبي الجمارك، لكن بما أنه مقابل الغروب مباشرة، يجلس عليه دائمًا بعض العرب الطيبين القرفصاء، صامتين، ركابهم ملفوفة في برنسهم، يدخنون السجائر في انتظار المغرب.

في كل لحظة، وخاصة عشية أيام السوق، تظهر مجموعات من الجمال بصعوبة من طريق جانبي شديد الانحدار، لا يُرى من المقعد سوى مخرجه بين المحاصيل العالية. يبذل أصحابها الجهد جميعًا من أرجلهم وظهورهم وعناقهم لتسلق آخر الدرجة، ولها شيء إنساني، سواء في الاستسلام الظاهر في أعينهم، أو في تشبث أرجلهم، أو في التواءات أعناقهم الطويلة. عند خروجهم إلى ساحة صغيرة قبل الباب، يختلطون ويزاحمون بغباء، مع صرخات سائقيهم القرويين طوال القامة، نحيلين، مسمرين، الذين يكملون تسلق الممر الحاد، وهم يهرولون ببرنسات ترابية وهناءات تتطاير، ويضربون الجمال بعصي خشبية على الجوانب، لتظهر بقع لامعة وسوداء

كالطبول عند النقاط المضروبة. يتم توجيهها باستمرار نحو سياج صغير مرتفع قدمًا، يحتوي قبرين لمرابطين، ضيقين وقصيرين كأكفان أطفال، لكن سقفهما المائل يعطيهما مظهر توابيت غير مكتملة. عند رأسهما، توجد قبتان صغيرتان بأبواب ضيقة لا تدخلها الذراع، جميلتان ومميزتان جدًا، وتبقى الذاكرة حية وسط حشود الرجال والجمال اليومية.

في داخل السياج، تحمل الريح أحيانًا خصلات شعر أحمر من ظهورهم. تهتز الأرض تحت ضجة مفاجئة: جمال عنيدة تدافع عن نفسها، أو خرقاء تسقط أكياسها، مشادات بين جابي الضرائب وعرب الريف، وذعر الجمال التي تندفع نصفها فجأة إلى المدينة قبل الحصول على تصريح المرور. تتعالى نداءات، دعاء لله، حسابات متنازع عليها، لدرجة هروب عصافير الجوار. يبدو أن هؤلاء مستعدون للقتال.

المراقب التونسي، أنيق وعالمي المظهر، يرتدي حذاءً، يحافظ على تفوقه كموظف على هؤلاء الذين يجرون أقدامهم الحافية على حدود السياج. «تذكرة! تذكرة!»، «التذكرة، تصريح المرور؟» تُنطق هذه الكلمات بأمر من الموظف، وبنبرة تفسيرية متواضعة. عند خطأ في عدد الحيوانات، يعيد القرويون عدّها، فتتفرق الحيوانات وتهرب، مختلطة مع أخرى تخرج في الوقت نفسه من أعلى الممر. من حين لآخر، تظهر عجوز منحنية، عيناها شابتان دائمًا مبتسمتان، ترتدي ملابس بالية وشرابات من خصرها، لكنها تضع عصابة نظيفة أمام فمها بعناية، تقود حمارها، تدفعه وركيه بعروقها الزرقاء المختلطة بالوشوم، وتحمل حمولة من الأغصان، ويعاين الموظف سلالها، مؤكدة عدم إدخال أي تهريب. عند غروب الشمس، يغلق جابي الضرائب منزله الصغير، ويظل سياج المرابطين معزولًا لليلة، تحت حراسة دينية تقليدية منذ قرون.

تحت قوس باب البنات، تنحدر تونس نحو البحيرة كسلم واسع من كتل بيضاء تفصلها شقوق الشوارع، ويبرز بعيدًا جزء آخر مستقيم، أبيض، يمتد إلى حلق الوادي، كجدار آخر أمام البحر. على خط باب

البنات، يظهر مسجد سيدي محرز، أبيض بالكامل، بقبابه الثمانية حول قبة مركزية، يشبه آيا صوفيا، رغم أنه ليس الأكبر في تونس.

باب سيدي عبد الله يقع في زاوية منخفضة، بين حصن قديم وجدار خزان مياه حديث. يسير الفوج أحيانًا على الطريق الصاعد إلى الباب، ويتوجه المسلمون لرؤيته، ويضعون أقدامهم على النقوش الصامتة بين القبور، غير مبالين، محرومين من الحماس العسكري الذي يظهر في الجزائريين، بالكاد فضوليين، ينتظرون حتى يغادر الجنود الطريق ليهبطوا نحو قرية سيدي عبد الله، منخفضة بلون أخضر مستنقعي.

في أبريل، يغطي نصف المنطقة نبات الخشخاش والأقحوان الأصفر، لتصبح مئذنة الباب المربعة لوحة واسعة بالألوان الأحمر والأصفر والأبيض، بين أكوام خضراء. عند غروب الشمس، تهرع برنسات على المنحدرات المعشوشبة من سيدي عبد الله إلى الطريق، وأحيانًا يمر عدو حربي يصعد من داخل الباب، مخيفًا سكان المنازل الصغيرة، متسارعًا قبل سحب المزاليج.

باب سيدي بالقاسم يبدو مهجورًا، مع الطريق القاحل الممتد، أكثر كآبة عند ارتفاعه فوق الريف، منفردًا على قمة تلة ضيقة، يشبه مدخلًا جانبيًا لدير، بعد عبور ظل القوس، حيث يسقط الضوء على لوح كبير من الرخام الأبيض المنقوش، بجانب مسجدين صغيرين، أحدهما بقبّة خضراء من القرميد.

باب عليوة، مقابل الجنوب، يفتح على طريق رادس والحمامات وسوسة وجنوب تونس، مزدحم جدًا، وله مظهر باب عام: عربات أجرة تصدر صريرًا، جمال فحمية محملة بأحمال على شكل حرف U مقلوب، أسراب حمير صغيرة تتأرجح، وكأنها تتحدث مع نفسها. لكنه لا يملك سحر باب الخضراء، ربما لأن المقبرة أمامه لم تعد حرة، أو بسبب طريق الطين الأصفر المستقيم، أو رائحة المستنقع القريبة.

بجانب باب عليوة، يوجد مقهى عربي تحت تعريشة: لا صراخ، ولا

مشاجرات، بل ضحكات مهذبة ومحادثات ودية، يجلس الناس على مقاعد متدرجة، ركبهم مرفوعة إلى مستوى الذقن. في الليل، يشعل صاحب المقهى فانوسًا ضيقًا وطويلاً ذا ثمانية أوجه، لتستمتع بالجو دون أي ضجيج سوى الهواء البارد في المساء.

الذوق التونسي

تُعد تونس، في العالم الإسلامي وحتى أقصى السودان، مدينة فنية، صانعة الجديد، تمتلك موهبة الابتكار والتنفيذ الدقيق. تمنحك أيام قليلة من التجول فيها انطباعًا جديدًا، في البداية غير محدد: تتفاجأ العيون بأشكال وألوان لم ترها من قبل في مدن مثل قسنطينة أو الجزائر. كما يظهر تقسيم العمل وتمركز المهن حسب الشوارع، مما يعطي انطباعًا بصناعة نشطة: أسواق بأكملها تنشغل بصناعة الجبيرة، نعال الجلد، الشرابات، بلف الحرير، ضغط الشاشيات، بيع الكتب؛ شوارع مخصصة لصانعي السروج، صانعي اللجام والفوانيس؛ هنا تُصنع هياكل السروج المكسوة بالرق، وهناك أرفف وخزائن.

ليست المنتجات وحدها ما يدهش، بل مظهر الناس وإيماءاتهم: لم تعد خشونة الجزائريين الذكورية ووجوههم الصارمة موجودة، بل نرى شعبًا ممتلئًا، يستمد من وضعياته الناعمة مظهرًا من النبل وحركات يدوية أنثوية. لا يبدو التأكيد العربي بأن «تونس زهرة الذوق» مبالغة؛ يبدو ممكنًا أن يفكر هذا العرق في ما هو أكثر من أعمال الحرب والتمرد. ومع غياب المتاحف، تظل الآثار، مثل جامع الزيتونة وجامع سيدي محرز، مبانٍ عادية إلى حد ما.

الحرفيون، عند تنفيذ أعمال ثمينة، لا يعيشون تيار منافسة حيوية كافية لتوليد أشكال جديدة؛ العمل الغالي سيكون نسخة من النماذج التقليدية. لذلك لا يمكن وصف فن تونسي شامل، لكن التونسيين يمتلكون إرثًا من الذوق الحقيقي، يظهر حيًا في كل زاوية من المدينة،

كالبراعم حول شجرة بلا رعاية، غير محددة ولكن عنيدة. أول ما يلاحظ هو الهوس بالتزيين وجعل الأشياء جميلة، مع قدرة على تعديل الأشياء القادمة من الخارج حسب الرغبة. فضيلة في زمن يتخلى فيه الناس عن ألوانهم للموضة المفروضة.

العربات الفرنسية، المطلية بالأسود، مبطنة بالساتان الأصفر أو الوردي، وبعضها في المرسى أزرق سماوي أو زبدة طازجة. خيول عربات الأجرة لها عرف ممزوج بالصوف الأحمر، أحيانًا ذيلها مصبوغ بالأصفر بالحناء. الأسواق تعرض ألوانًا مشرقة: جبل من الفول، فانوس طويل بزجاج ملون، شمعدانات ومصابيح، وزهور بتنسيقات دائرية تصنع من قبل الباعة، تتدرج بلطف إلى قمة الزهرة البيضاء. في أبريل، تنتشر الورود وزهور البرتقال بكثرة في الأسواق، في سلال وحزم وأيدي بائعي الورود الصغار، حتى في الأزقة الهادئة، مع لمسات دقيقة على العمائم وحلويات مزينة بأوراق ذهبية.

من هذه الملاحظات الصغيرة، يظهر أن الفن الصغير التونسي يتشبث بالتفاصيل، يضاعفها ويعقدها، ويجذب الانتباه أكثر من الأشكال النبيلة المصممة دفعة واحدة. لا توجد مدرسة فنية تخنق الأصالة، فالفوضى موجودة مع عزلة الفنانين، وكل شخص حر في الابتكار لمتعة عينيه، دون منافسة تقليدية. معظم الحرفيين لديهم نماذجهم الخاصة ويعيشون جنبًا إلى جنب، نادرًا ما يقلدون بعضهم، فتظهر في الشوارع أعمال شخصية فريدة.

أمثلة على ذلك، رجل فقير يحمل مروحة مجمعة بعناية، معين مركزي مغطى بهلال مقلوب، ومعينات أصغر تحركها أصابعه، أو تطريزات نعال عند إسكافي متواضع، كقرن صغير من الشامواه ملتف برشاقة؛ أعمال بسيطة لكنها مدهشة، ابتكرها صاحبها وحده ولم تقلد أبدًا.

كل صباح، حوالي الساعة العاشرة، يقام سوق للأشياء المستعملة في أعلى المدينة، عند تقاطع شارع سيدي بن زياد وسوق الباي، ضمن ساحة

صغيرة مسقوفة بالألواح تسبق سوق البركة، وهو الجزء الأكثر شهرة بين الأجانب، يصل إليه المرء باتباع شارع القصبة وعبور سوق الباي الصغير.

الأثاث الكبير المعروض للبيع يبقى في الساحة طوال اليوم. بعض الخزائن ذات الأدراج من خشب الماهوجني المرصع بالخشب الأصفر، مصنوعة في إيطاليا، إلى جانب طاولات وساعات، يملأون الساحة الصغيرة، تاركين ممرًا ضيقًا مرصوفًا بحجارة زلقة للنزول إلى سوق البركة. عندما يبدأ البائع بالصراخ، يكفي حوالي خمسين شخصًا ليملأوا التقاطع. المشترون يقفون في أماكنهم، ويدفعون تدريجيًا نحو المتاجر، حيث تعمل خياطون هادئون في أكشاك نصف متر مرتفعة، على الرغم من الحركة الصاخبة.

في وسط الحشد، يتحرك الباعة بأذرعهم فوق الرؤوس، حاملين سروال امرأة من الذهب والترتر أو سترة زرقاء مزخرفة؛ أحدهم يستخدم عمامته كحامل للملابس. يتسللون بين الحشود ويعلنون «مولى اللباس! ها هو سيد، صاحب الملابس»، بصوت طبيعي دون صراخ. الحشد هادئ، الأعصاب مرتاحة، الوجوه مبتسمة، والتسعير يتم دون أي كلمات مسيئة. تُرفع الأيدي نحو الملابس، وتُقترح الأسعار بصوت عالٍ قليلًا، غالبًا بالصيغة «ين»، كضربات جرس خفية.

يُطير أحيانًا حايك خفيف أو سترة طفل فوق الرؤوس لتصل إلى خياط، الذي يعيدها إلى البائع. إذا كان هناك بيانو مستعمل، تتخلله نغمات خفيفة، بينما يلمس الشباب الريفيون المفاتيح باحترام، دون أن يطغى صوتهم على منادي الأسعار.

في الشوارع، برنسات بألوان تونسية تُسحب ببطء على طول الجدران، يجرها شباب أنيقون بعجائز محمولة على رؤوسهم، أو تُعرض في المتاجر بين التجار. البرنسات الجديدة مزينة أو مستخدمة، لكنها تظل ملونة، غير مماثلة للزي الجزائري، الذي يميل إلى الأبيض والطيات الحادة. البرنس التونسي من قماش أوروبي، حريري، أملس، مقاوم للطي، الألوان غالبًا

باهتة وبنفسجي وأزرق سماوي وبني فاتح، مما يمنحه مظهرًا أنثويًا.

البرنس يُخلع للعمل ويُعاد ارتداؤه بعد ذلك، غالبًا على الكتف الأيسر دون تمرير الرأس، ليصبح نوعًا من المعطف المتعدد الاستخدامات: يُستخدم لحمل المؤن، البازلاء، البرتقال، أو دفاتر الحساب، ويُعاد ارتداؤه بطرق مختلفة، أحيانًا على الظهر أو الورك، أحيانًا كغطاء للكوع. البرنس إذن، في تونس، قطعة ترف لا تلزمها الحياة اليومية، ويظل مرتبطًا بعناد الحفاظ، فضيلة دينية، وإلا لكان قد اختفى منذ زمن.

القطعة الأخرى في الزي العربي، الحايك، شريط طويل يلف حول الجسم والوجه، نادرًا ما يُرى على رأس تونسي. الشاشية الحمراء كافية، تُلف حولها عمامة إسلامية بيضاء، مشابهة لعمامة الزواف الفرنسيين النظامية، مع شرابة تونسية طويلة كثيفة تتدلى على الكتفين كشعر امرأة. في الشوارع، تظهر التعديلات الشخصية على العمامة والشاشية، تجعلها مكافئة للقبعات الأوروبية، لكنها تحتاج إلى إعادة ربط عدة مرات في اليوم، بينما يُسهل خلع القبعة الأوروبية، كونها مجرد تسلية مفضلة للمسلمين.

يظهر سادة الملابس في الساحة فقط عند الخروج من سوق الخياطين، الذي يبدأ عند الزاوية المنخفضة للساحة الصغيرة وينحدر تدريجيًا. في البداية، نرى صفين من الأكشاك على اليمين واليسار، تبرز منها ألوان زاهية: أقمشة تتلألأ فوق الحواجز والقضبان، سترات صفراء ذهبية، قنادر بنبيذ مرقطة بمربعات من الحرير الأخضر، برنسات رمادية حديدية مزينة بضفائر سميكة، مخمل بنفسجي يختفي تحت زخارف عربية ذهبية. ضوء النهار يتسلل من فجوات الألواح، فيحرك الألوان بين الضوء والظل، فتبدو الأقمشة أحيانًا متلألئة وأحيانًا ناعمة في الظل.

في هذه الأكشاك، يعطي الخياطون ملابس جديدة للبيع لأحد «المتجولين بالمزاد» ليعرضها على نفسه ويتجول بين الحشد، أو يأتي بائعون مستعملون ليبيعوا ملابس للتجار. عند فحص الحايك، يُنشر على طول

عدة أمتار ويُسد السوق مؤقتًا، دون أن يغضب أحد. التونسيون يأتون أحيانًا للتسلية، يلمسون الأشياء بلا مبالاة، إلا إذا مرت تحفة صغيرة من الحرير المطرز أو الجلد المثقوب أو الفضة أو البرونز المنقوش، فينشط هواة التحف، وتختفي مظاهر الملل على وجوههم، مظهر مشابه لقاعة المزادات في باريس.

تُباع المجوهرات والأحجار الكريمة والمعادن الثمينة عادة عند مدخل سوق البركة، بعد عبور الساحة الصغيرة للأثاث. هنا تتراجع الألوان، ويبرز التأمل أكثر، إذ تتجه أنظار مجموعات من النساء نحو قطع صغيرة: مبخرة فضية تحاكي مئذنة، خلخال مثقوب، خاتم مرصع بالماس يمثل زهرة. تجار المجوهرات، غالبًا من كبار السن اليهود، يعرضون بضاعتهم بيد ممدودة كواجهة عرض، وأصابعهم مرصعة بالخواتم، وعروق أيديهم مزينة بالذهب، مع مناداة «ين، ين» بصوت هادئ.

النساء البيضاوات، ملفوفات بالكامل، يمشين مستقيمات، رائحة العنبر تفوح منهن، يتطلعن بعناية على القطع الثمينة، وملامحهن تبدو كملامح نساء في قاعات المزادات الأوروبية. المجوهرات تشمل أساور ثقيلة، شعارات محفورة، صفائح ذهب وفضة مزينة، وأيدي كهنوتية تُستخدم لطرد «العين الشريرة». بعض القطع، مثل طوق العنق، تحمل رموزًا مجهولة، تُصمم وفق هوا المرأة.

الأثاث الأصيل، الأواني الفنية، والزخارف المحلية يمكن العثور عليها في متحف الباردو أو قصر السعيد، حيث تعرض بأقصى درجات الكمال. البطاقات الموجهة للزوار تحمل أسلوبًا رسميًا غريبًا: يُرحب بالزائر الأوروبي ويطلب منه معاملته بلطف، حسب العادة. المباني المحيطة، ثكنات وحصون من القرن السادس عشر، تظهر وكأنها متأثرة بالهدم المزمن، ما يعطي للساحة والمكان شعورًا بالقدم والتاريخ.

فوق الباب، برج أبيض مثمن الشكل على طراز منارة، بساعات تشير إلى أطوار القمر، مع أكشاك حراسة صغيرة، صوّارٍ ملونة لأعلام

الاحتفالات، وشرفة على الطراز الإيطالي، وغرفة صغيرة مزججة. بعد الباب، شارع من المتاجر الصغيرة، ساحة ثكنات، نفق مظلم قبل الوصول إلى درج القصر، يبدو كمباني ملحقة غير مرتبة لقلعة ريفية كبيرة. الداخل يذكر بمنزل برجوازي ريفي، مزين من قبل شخص نشط في منتصف القرن التاسع عشر، غرف صغيرة بلا ذوق، أرائك من الحرير الأخضر مع تذهيب وألوان صارخة، وساعات برونز مذهبة، بارومترات، زهور اصطناعية تحت أغطية زجاجية، وستائر حرير إسطنبول، وثريا من الخزف الأبيض، كما في أسواق باريس.

الممرات باردة، عارية ومبلطة، قبل أن تصل إلى قاعة الاحتفالات الكبرى، التي تقسم نفسها بين معرض متحف يعرض صور الملوك العنيفين والهادئين، وصالون مغبر بثرياه الكبيرة وأثاثه المتباعد. الخشب المنحوت بزخارف عربية يشكل الزينة الرئيسية في معظم الأثاث التونسي الأصيل، كما في ساحة المبيعات في شارع سيدي بن زياد، لكنه هنا أروع. صنع نجارو تونس لوحات خلفية لرفوف الأسلحة، تعكس المرايا بين فتحات الخشب، مبهجة على الرغم من تشابهها بزخارف المسارح. الأرائك واسعة، مزينة بدرابزينات متعددة تضيف بعدًا معماريًا، وفي الطابق السفلي توجد قاعة تُسمى «بيت الحكام» بها عرش ذهبي رائع، يبدأ من جدار خشبي مزخرف بالذهب، يمتد بانحناءات تدريجية حتى يصل إلى المقعد الضيق والعالي في زاويته الحادة.

في قصر السعيد، نرى زخارف ذهبية على الصناديق والساعات والأسرة، تمتد أمام مرايا بزوايا محفورة بصبر، وانسيابية الخطوط تمنحها نبلًا استثنائيًا، ما لا يُرى عادة في الأعمال الحالية. كل شيء براق وفاخر، والملوك التونسيون، بلا خوف من البهرجة، يزينون أنفسهم وأثاثهم بالألوان الصارخة والذهب اللامع. التونسي يرتدي ويزين بكل صراحة، دون حياء منافق، معترفًا بجمال البريق حتى لو كان على تقاليدنا السوداء التقليدية، لكن جمال المناظر الطبيعية أقل أهمية عندهم. موقع الباردو،

على السهل المزروع بدل تلال خلابة، يقلل من الإمكانية الجمالية للمكان مقارنة بما يمكن أن يكون لو اختير موقع مرتفع يتيح رؤية تونس، البحيرة، الخليج، جزيرة زمبرة والجبال حتى زغوان.

رمضان في تونس

مع قدوم رمضان، يبدو الاستعداد للصيام متواضعًا، بكاد تُرى مؤشرات متفرقة، مثل لافتة صغيرة بخطوط عربية بالقرب من جامع سيدي بن عروس، تحدد مواعيد الشروق والغروب. الفقراء، ذوو البرنسات الممزقة، بالكاد يستطيعون شراء رحلة إلى مكة بعد رمضان. الشوارع، مثل شارع باب سويقة وساحة الحلفاوين، تحتوي على مسارح صغيرة تمثل مغامرات أورلاندو فوريوسو أو غاريبالدي، وأحيانًا عروض «القراقوز»، لكن المسلمين يفضلون الإخفاء والهدوء. في الشوارع المصممة على الطراز الأوروبي، هناك سيرك لترويض الحيوانات وعروض للأقزام، لكن المدينة هادئة، بعيدة عن البهجة الصاخبة.

فتيات يهوديات صغيرات يكنسن الشرفات، رؤوسهن مغطاة بمنديل حريري، صدورهن تحت سترات بيضاء وسيقانهن ملفوفة بالسروال، بينما المسلمون يغسلون أيديهم عند الزوايا أو يتحدثون مستلقين على أكوام الأغطية والسجاد. السبت هادئ، الأسواق مغلقة، الأنفاق البيضاء صامتة، المسلمون أكثر نعاسًا وانطفاءً. ومع ذلك، يعود الناس إلى العمل يوميًا، يتذوقون الحياة بفرح بسيط، دون حساب للمستقبل، مثل الأطفال.

عند حلول الظلام في شارع القصبة، يظهر طقس التزيين الرمضاني: زنجي عجوز يحلق رأسه على الرصيف أمام المتجر، يداه تعملان بالصابون والموس، في مشهد غريب يجمع العمل اليومي مع الاحتفالية الرمضانية. وفي اليوم الأول من رمضان، الشمس مشرقة، الشرفات تجف وتبيض، الطيور تغرد، والمدينة ترتجف بفرحة احتفالية، لكنها ليست فرحة رمضان

فقط. منذ الصباح، تبدأ الآلات الموسيقية الإيطالية، الأرغنات اليدوية، البيانو ذو المقبض، القيثارات والكمان، في إصدار أصوات متفجرة في المدينة، كأنها مصنع موسيقى حي، تمتد أصواته بعيدًا في الريف، كبركان يهدر قبل أن يثور.

يتجمع الحشد عند التقاطع الذي يسبق باب فرنسا. يقطع ملمعو الأحذية الصغار طريقك بفرشاتهم، ويصرخون: «تلميع؟ هيا... تعال... تلميع بالدهن!» يصدرون ضجيجًا وحدهم، أكثر من محادثات جميع المجموعات، الإيطاليون بشعر فني خارج قبعة مهملة، الفرنسيون يرتدون قفازات، جميعهم مزينون بزِّي الفاتحين الإداريين. السيدات ذوات الريش يطوِين فساتينهن الحريرية على جوانب الجزارين الزنوج الذين يعرضون، في الحشد، خرافًا مقطعة على عصي. لأن التجار المسلمين يحكمون على أنفسهم بعذاب البقاء صائمين أمام أكشاكهم الشهية، يستمرون في رش خضرواتهم لجعلها جذابة، بمكانس صغيرة مغموسة في الماء؛ ولا يخشون شمّ فلفل أحمر لضمانه لإسباني، يساوم عليه طويلاً.

لكن كل هذا العالم الذي يتجه نحو الكنيسة المسيحية، بخطوات احتفالية، والبرانس المبيضة التي تنزل من المدينة العليا، وأصوات الباعة المتجولين، والموسيقى التي تدندن في كل مكان، وصدمة الأكواب تحت خيام المقاهي المليئة بالفعل، كل هذا لا يعطي انطباعًا بالربيع، مثل هؤلاء الأطفال الجميلين في تونس، صبية يهود أو مسلمون، يرتدون ألوانًا صارخة، يتدحرجون في الشمس على أرصفة شارع فرنسا، ويبدون، بحركاتهم المرنة الممتدة على نطاق واسع، كحشرات رائعة تجدف في الفراغ على ظهورها.

ومع ذلك، كلما صعدنا، تركنا في المدينة المسطحة هذا الوهم ببداية عيد، ويظهر مرة أخرى المظهر الهادئ لجميع الشوارع، البرجوازي لبعضها، الصبور للشوارع التجارية. يهتز الهواء بموسيقى بعيدة، وأجراس الكنائس تُقرع للقداس. الناس الذين يعيشون في هذه المتاجر يسبحون بلا نهاية، ويقرأون فصولًا من القرآن، وهم يتابعون بعين يقظة المارة الذين يترددون

أمام الواجهة، وقد يشترون.

هؤلاء التجار يتثاءبون، يتثاءبون بجميع المقامات: هذا هو حفلهم الوحيد لافتتاح رمضان. أحدهم، عندما سألته عن حاله، أجاب: «صايب شوية»، قليل من التوعك، رأسه ثقيل؛ ويتثاءب! آخر يشرح أنه يجب، بعد كل مغرب، أن يأكل القليل جدًا لكسر الصيام؛ وإلا فلن تعتاد المعدة، وكل يوم ستبدأ الآلام من جديد.

سوق العطارين يبدو وحده يتوقع بيعًا غير معتاد؛ يرتب واجهاته بعناية، ويخرج كل احتياطيات متاجره. الأكشاك الضيقة والعميقة، التي تفتح جميعها مظلمة تحت القوس سيئ الإضاءة، مليئة ببرنس أبيض يجلس فيه كبوذا؛ أمام رأسه الشموع ذات الفروع الخمسة، «الخمسة» الشمعية المجمعة على معصم مذهب، تمثل إشراق الهالة، بينما تقدم الأطباق الخشبية، كقربان له، مسحوق الحناء المخضر، ودبس السكر الصابوني، وفي قطن، الأنابيب الثمينة لخلاصة الورد. لذلك تكون الرائحة أقوى من المعتاد، تحت هذا النفق الأبيض؛ فقد حدثت فتحات أكثر تواترًا للقوارير، وستُسكب قرابين أكبر من العطور على قبور القديسين.

إنها رائحة شمع ومسك وخلاصة ورد وعنبر، ممزوجة ببعض روائح العشب الجاف والحناء، ربما... استهلاك الصابون كبير جدًا في شهر رمضان هذا، والاغتسال دقيق جدًا، لدرجة أن تجارًا متجولين آخرين يأتون لمنافسة تجار المتاجر، ويعرضون، عند باب جامع الزيتونة، كرات من الصابون الوردي، وألواح زيتية بلون أخضر جميل من الطين، وأخرى بنفسجية تشبه برقوق «المسيو».

لقد تحدثت مع بائع عطور: «أليس التقويم هو الذي يعلن عن يوم بدء رمضان؟» قال لي: «إطلاقًا، إنه القمر. من يرى الهلال، رقيقًا كخيط، يأتي ليقول ‹رأيت الهلال›؛ وحينئذٍ يكون الشهر قد بدأ.» سألته: «لكن لإيجاد القمر الصغير جدًا في السماء، يجب أن يكون عالم فلك، فلكي؟» أجاب: «فلكي؟ لا، لا، لا حاجة! الفلكيون لا يرون أفضل من الآخرين. يكفي أن

يكون رجلاً شريفًا وله بصر جيد: إذا قال إنه رأى القمر، يصدقونه ويبدأ رمضان.» يستهزئون بقوانين الطبيعة والرياضيات! يجب أن يكونوا قد رأوا الهلال، هؤلاء المتدينون الوضعيون. تُسمى الأيام الأولى من كل شهر قمري «الغرور»، لأن المرء قد يشك في ما إذا كان الشهر قد بدأ، ويستمتع «الذين لديهم بصر جيد» بالتقاط خطأ التقويم.

عندما نغادر هذه الأحياء العليا الهادئة جدًا، حيث لا يقطع التثاؤب سوى الصلوات والمسابح، لنعود إلى أسفل تونس، تعود إليك المفاجأة والمقارنات غير اللائقة. يضرب يوم الأحد الرصيف بكل «خارج» أزيائه وتأنقه. تفيض المقاهي بالشاربين؛ يعمل الحلاقون الإيطاليون والفرنسيون بحمى، ينشرون على الشعر المراهم والمياه التي، عندما تتبخر بعد قليل في الشمس، ستنبعث منها أيضًا روائح الورد واللويزة، لكنها أثقل من تلك الموجودة في الأسواق الإسلامية، عطور دهنية مخففة في عرق أجسام سمينة.

عاد دافعو البيانو من صقلية بعد أن جمعوا إيراداتهم، لكن موسيقى أخرى تحل محلهم، موسيقى الزواف، في شارع البحرية. ويقضي الجمهور الأنيق في تونس حريته يوم الأحد في تمرين غريب، مقلد من جميع المدن الإقليمية، والذي يتكون من التجول في الشارع في حشد مضغوط بين المقطوعات؛ يسير الجميع بخطوات تنزه، ويدورون عند نفس النقطة ويعودون نحو الجنود الذين يعزفون مرة أخرى.

حشد بفساتين صاخبة، بملابس رجال أكثر تواضعًا؛ موظفون بميزانية ثابتة، مستوطنون بلا نقود، بالكاد استقروا. هنا وهناك بعض العمامات، لكنها قليلة جدًا، بالأحرى يهود. ومع ذلك، عند أسفل الكاتدرائية الكاثوليكية، يوجد صفان طويلان من المقاعد غير المنتظمة يبدو أن عليهما يتم اندماج الأعراق وتوافق الأذواق: هناك صبية مسيحيون ويهود ومسلمون، بعض أصحاب الدخل المحدود الصغار متعبون من عصيهم، زنوج ينامون، صائمون مستيقظون ينتظرون نهاية اليوم، لا

يتأثرون وسط الكعك الذي يُؤكل، والسجائر التي تُدخن حولهم.

وعندما، مخدرين بالراحة، يتحركون قليلًا، يذهب اثنان اثنان، بخطوات خاملة، ليتكئوا بذقونهم على سياج نافورة ماء تصفر وسط حديقة زهور. يراقبونها وهي تنبثق ويناقشون، لساعات، ظاهرة انبثاقها.

لقد صعدت مرة أخرى عمدًا نحو الأسواق لأرى سلوك المسلمين عند طلقة المدفع التي تكسر أول صيام. تُطلق طلقتان، واحدة في المرسى حيث يسكن الباي، والأخرى خلف تونس، في حصن العزوز. في الشارع المفتوح المسمى سوق البلاط، المزدحم، الموحل على الرغم من الطقس الجميل، لا يوجد أي نفاد صبر مع اقتراب الساعة؛ بعض الساعات تُخرج، بعض السجائر تُلف؛ يبدأ أصحاب المقاهي في تحريك مواقدهم لتسخين الماء، لأن السجائر والقهوة، كما يقول الجميع، هي أفضل طريقة لكسر الصيام: حرمان الشرب والتدخين هو الأصعب تحمله.

فجأة، تدوي طلقة المدفع في الأزقة: لا صراخ ارتياح، لا لهجة تمرد ضد النير المرفوض؛ يوزع صاحب المقهى فناجينه، وبما أنه يعدها واحدة تلو الأخرى، فإن آخر من يخدم عليهم يضطر للصيام ربع ساعة إضافية؛ أحدهم كان ينحت برتقالة بطرف سكين، لم يتحرك؛ لا شك أنه يجد ما فعله للتو جميلًا جدًا، لدرجة أنه يلف عمله في منديله بدلاً من أكله.

ومع ذلك، يصير الذهاب والإياب أكثر تواترًا في سوق البلاط؛ وأناس جالسون القرفصاء ينهون محادثتهم ويعودون إلى منازلهم حاملين عشاء العائلة في مناديلهم. ومتسولة عجوز متكئة على عمود حجري، والتي كانت تنام من كثرة تكرار «سيدي عبد القادر...» استيقظت عند طلقة المدفع؛ هذه المحكوم عليها برمضان دائم تطلب بصوت أكثر حدة قطعة الخبز الصغيرة التي يسمح بها نهاية الصيام للآخرين.

ها هي، في هذه الساعة التي تُشعل فيها الفوانيس، تعود الآلية الموسيقية للعمل، أكثر خفوتًا من الصباح، متمركزة في مناطق معينة من المدينة. بالقرب من ساحة قرطاجنة، مركز الحي الإسباني، في طوابق

أرضية هي عبارة عن حظائر تسكنها عائلات من المستوطنين، في حظائر مكتظة بالأسرة، تُنظم حفلات رقص حول البيانو اليدوي. في غياب النساء، يرقص الشباب الإسبان والصقليون مع بعضهم البعض، في قمصانهم، والوشاح يطير، لكن القبعة اللينة موضوعة بانتصار على خصلة شعر لامعة بالدهن.

لدي أصدقاء في سوق البركة، سوق المجوهرات، الألماس، والأعمال الفنية. هم مطرزون على «الفيلالي»، أي على أفضل أنواع الجلود المغربية، التي تأتي من تافيلالت. يزينون أغطية السروج، أغطية الخيول المخملية، لجام الخيل والبغال، أحزمة الصدر التي تشبه سيلًا من الذهب في قطرات، سراويل نسائية متصلبة بفرط الترتر، ذات مظهر كهنوتي كأجزاء من رداء، مخصصة للأغنياء أو المفضلات اللواتي يُفلس من أجلهن؛ ملابس كاملة صغيرة جدًا لأطفال مسلمين، تونيكات متفاخرة من الحرير الباهت مزينة بالذهب، مطرزة بالذهب، أجراس ذهبية بالكاد مرنة؛ أحذية طويلة ستتلألأ في مواكب الفرسان الاحتفالية؛ جبائر، حقائب سيوف، فسيفساء من الجلود محاطة بخيوط فضية؛ وخاصة الشاشيات الحمراء ذات الشرابة الزرقاء السماوية لجميع النساء، تحمل على الجبهة شعار تونس، الهلال والنجمة على خلفية من الحراب، هذه القبعات الحمراء المخصصة، كالسراويل الذهبية، لزينة الحميمة، للتأمل الحصري للسيد.

إنهم فنانون أكثر من كونهم عمالًا: برنس رمادي لؤلؤي، برنس كريمي، عمامة حريرية مطرزة، السيقان ليست عارية أبدًا، دائمًا في جوارب بيضاء. يعملون والماس في أصابعهم، في الكشك الذي يستخدمونه كمتجر، لديهم مساحة كافية فقط ليجلسوا وجهًا لوجه، ويمدون أرجلهم، وارتفاع كافٍ ليقفوا بين السروج المعروضة، والركاب، والجبائر المعلقة، والسراويل البنفسجية المطوية فوق تطريزها.

يقضون حياتهم في هذا الكشك البسيط والخالي من الديكور، كأي متجر خردوات عربي، غني مع ذلك كمتحف بالأعمال الذهبية والفضية

التي يحتويها. يرسمون على الرق بطرف سكين الخطوط التي ستتبعها بعد قليل خيوط الذهب، «العدسات»، واللفائف المعقدة، بدقة يد مذهلة، بدون نموذج، مستمدين الرسوم من رؤوسهم ومن التقاليد التي نُقلت إليهم.

أبو بكر، عامل موثوق به، صديق عمل، شبه مساوٍ، لكنه ليس رئيسًا، يحتل الركن الأيسر من المتجر. لديه عين ضعيفة من كثرة تتبع النقاط الصغيرة عن قرب، والبحث عن الثقب في الترتر؛ لذلك يلتفت أحيانًا نحو مربع الضوء الذي يسقط من قوس السوق، ليرى بشكل أفضل؛ طرفا جواربه البيضاء، الموضوعان حينئذٍ على حافة المتجر، يبرزان في الشارع ويُريان من بعيد، وعمامته أيضًا منحنية، منتبهة على المشبك الخشبي الذي يمسك بالعمل. يده ممتلئة، مهندمة، بيضاء، ولها حركات أصابع بينها كيد امرأة؛ يأخذ كل الأشياء بدقة فائقة، ربما عادة التلمس بطرف إبرته على منديل يربط ساقيه ويشكل وعاءً، «الكونتيل» غير المحسوس، خيوط الذهب والذهب الأحمر التي سيثبتها على الرسم. وجهه ممتلئ، بشرته نضرة ومحلوقة حديثًا؛ عنقه ينحني بتأنق؛ عيناه تدمعان بسهولة عندما يضحك وذقنه يتضاعف؛ شفتاه المغلقتان دائمًا على ابتسامة رقيقة تتذوق الحياة، تنفتحان باعتدال على أسنان جميلة جدًا.

الكثير من الأشياء تجعله يعبس ويلوي عنقه باشمئزاز: افتراض عن طريقتنا في العيش نحن المسيحيين، كلمة عربية مستخدمة في الريف، لهجة سخيفة في تونس. يبحث بعناية على السجادة عن مكان لقدميه المنتعلتين بالأبيض، وخارج المتجر عن رصيف جاف ليضع نعاله؛ يرتب بشكل مريح حوله الأكوام الصغيرة من الترتر، والخيوط، والمثاقب. يشرب كذواق، يعطس بحذر، يسعل وهو يضع يده أمام فمه، وعيناه تطفئان بلطف ابتسامات العازب التي يوجهها للنساء المارات. يعرف كيف يظهر في كل شيء أنه قادم من إسطنبول، ويعرف ويمارس الأخلاق الحميدة للعاصمة.

صديقي الآخر، محمد علي، أصغر سنًا، هو سيد الورشة: له كل هذه الأعمال الفنية الجميلة المعروضة لفترة طويلة، والتي تُباع نادرًا جدًا، والتي ستصبح عديمة الفائدة قريبًا ربما، إذا أصبحت أناقة الملابس الأوروبية العارية من الموضة في تونس. هو أقل مثابرة في العمل من أبو بكر، مما يثبت إتقانه: يتسكع كثيرًا، يقوم ليذهب إلى المسجد أو إلى منزله ليرى أطفاله وزوجته. برنساته، التي يرتديها بعناية أقل، غالبًا ما تكون متنوعة؛ في إصبعه يلمع ماس كبير.

يقول بفخر معين إنه متزوج من مسيحية، امرأة يونانية. ليس ذلك، كما قد يعتقد المرء، ليظهر أنه بلا تحيزات، بل على العكس ليمجد نفسه لأنه جلب مخلوقًا إلى حضن الإسلام، بما أن أطفاله مسلمون، وليسوا مسيحيين. علاوة على ذلك، هو فضولي تجاه الأشياء الجديدة، يود أن يتعلم الفرنسية، ويحتفظ بذاكرة ممتازة بالكلمات القليلة التي أقولها له، وخاصة كلمة «يهودي» - «جويف» - التي يطلقها عشر مرات في اليوم، للمزاح على الخياط الإسرائيلي المقابل له.

أكثر عصبية، أكثر تقلبًا، غالبًا ما يدور على كرسيه، يضع مشبكه الخشبي وإبره، يقفز على نعاله، ويذهب عبر الأسواق ليشتري زهرة اشتاق إليها فجأة، وردة تركية ذات قلب أحمر غير متكور، «عنبرية» تفوح منها رائحة زهر البرتقال، أو يبحث عن ابنه الأصغر، ملاك صغير ببشرة سمراء وعيون حوراء، أحيانًا طفل وزهور معًا: يضعهم أمامه على وسادة، يداعبهم بالتناوب، يقربهم من شفتيه، يتركهم ينامون أو يأخذهم مرة أخرى.

محمد علي لديه فم ساخر: شفتاه تلفان النكات قبل إطلاقها؛ عيناه المتلألئتان تومضان بالكلمات وتتحكمان في تغيرات وجهه الأكثر تواترًا. إلى «الصديقات» اللواتي يمررن في السوق، يصرخ بعبارات جريئة، يرد على نظرة أو عبوس بنداء جريء؛ أبو بكر يهمس بها فقط.

رمضان يدفعه إلى الابتكار. ذهب ليشتري، في المدينة السفلى،

علبة تونة بالزيت، يتعامل معها بحذر شديد. بعض الجيران الذين رأوا من متاجرهم هذا الشيء اللامع، يقتربون ويفحصون العلبة: الملصق بالإيطالية يحيرهم. يستشيرونني: «ماذا كتب؟» أترجم: «فنتريكولي... إلخ، بطون تونة صغيرة... بالزيت الفاخر... مصنع كبير للمعلبات... ليفورنو... تعليمات للفتح...» تشكلت دائرة؛ عشرة من المارة يميلون آذانهم لهذه الترجمة. «هذا كل شيء؟» - «نعم...» يبدون محبطين كما لو كانوا يتوقعون أفضل من هذا الملصق اللامع المصقول، قصة... شيء غير متوقع في النهاية. يشرح لي محمد علي أنها مفاجأة يريد أن يفعلها لزوجته، وليمة للعشاء، عندما تطلق طلقة المدفع سراح معدته.

أبو بكر يتثاءب منذ لحظات بإصرار، وإن كان ببطء. دوره أيضًا، هو «صايم» قليلًا، متعب قليلًا؛ ينظر إلى الساعة؛ لم يعتد بعد جيدًا على الصيام. يرى محمد علي صاحب مقهى يحمل ليهودي من السوق فنجانًا صغيرًا على طرف مقبض طويل، ويصرخ له: «يا صديقي، أحضر القهوة لأبي بكر. أبو بكر عطشان...» أبو بكر، يحمر وجهه، ينحني بسرعة خارج المتجر ويشير إلى صاحب المقهى بإصبعه المسلح بإبرة «لا! لا!...»، بينما يندفع الجيران والمتسكعون في السوق نحو أبي بكر، نحو محمد علي، مستعدين لقلبهما في قاع كشكهما، إذا جددا الفضيحة بدعوة صاحب مقهى في الساعة الثالثة بعد الظهر. الجميع يفهم المزحة، يعلمون جيدًا أن مسلمًا شريفًا لا يمكن أن تكون لديه الفكرة الوحشية لكسر رمضان.

ابتعد صاحب المقهى مبتسمًا، دون أن يجيب حتى؛ عند الحاجة كان سيراقب صيام السوق بأكمله ويوبخ. بعد فترة وجيزة، تحت القوس الأبيض للسوق، المضاء بضوء الشمس المتساقط، حيث لم نكن نسمع سوى الكلمات النادرة أثناء العمل، وصوت المقص، والحفيف الخافت للأعشاب الطويلة التي تهزها الريح على حافة فتحات القوس، ارتفع همهمة مدعومة بأصوات جيتار، واقتربت ببطء.

كنت قد رأيت هذا الموسيقي بالفعل في سوق العطارين: شاب طويل

القامة يرتدي عمامة، وفي قندورة رمادية بسيطة، بدون برنس، وله وجه كريولي، شفاه قوية تبتسم من زاوية للنغمات التي يستخرجها من عوده، وهو يميل أذنه عليه، عيون كبيرة نقية، غير معبرة، وجهه منشرح في رضا ساذج يذكر بملامح التينور. كان يخطو خطواته الصغيرة تحت السوق، يحفز صوت الأوتار أحيانًا، ويستجدي بعينه رغبات السماع التي قد تستيقظ في الأكشاك. عندما يُعزف له، يُعطى له بعض القروش، أجر، وليس صدقة. هذا الحفل الموسيقي الذي يشتريه حر في فقير ليس نادرًا هنا.

بما أن هناك مقعدًا بالقرب من متجر محمد علي، جلس الموسيقي هناك دون أن يلتفت إلى أحد، خوفًا من أن يفرض نفسه، وبدأ يغني لحنًا بسيطًا، عاشقًا بسذاجة، أغنية رعاة أنيقين يقدمون ورودًا وزهور برتقال، يتنهدون وينفصلون، على مرافقة متشابهة دائمًا، بضع نغمات من لازمة حزينة. توقف محمد علي عن العمل، وبدأ يستمع؛ حتى أنه أشار إلى عازف «القومبري» ليقترب.

أبو بكر، الذي كان يخفض أنفه على ترتره ويبدو منزعجًا بشكل واضح، انتهى به الأمر إلى أن يقول له بصوت خافت: «إنه ذنب أن تستمع إلى الموسيقى في شهر رمضان.» قفز محمد علي: «ذنب؟ لكن لا... هذا لا يزعج الرأس؛ الموسيقى لا تسكر كالخمر...» - «إنه ذنب»، يصر أبو بكر الذي هو متأكد. محمد علي يقول مرة أخرى: «لكن لا...» بقلق أكبر. - «اقرأ سيدي خليل والشيخ عمر»، يستأنف أبو بكر، «سترى!» - «آه! إذن إنه ذنب»، يختتم محمد علي وهو يلتفت نحوي، «إنه حرام.» - وهو يعبس في وجه التينور الكريولي الذي لا يزال منتشيًا على عوده. أود أن أواصل النقاش وأستأنف: «كل ما يزعج الرأس؟... لكن البيرة، هل هي ذنب؟» - «خلال النهار، في رمضان»، يقول أبو بكر، «أوه! نعم، لا يجب أن نشرب ولا نأكل، ولكن بعد المغرب، لا.» - «بلى، إنه ذنب»، يستأنف محمد علي، «البيرة تدير الرأس كالخمر.» - «لكن لا!» - «لكن بلى»، يرد محمد، «إنها

تسكر!» - «آه! إذن إنه ذنب، إنه حرام»، يقول أبو بكر حزينًا، وهو يلتفت نحوي، مهزومًا بدوره.

بعد ساعة، تحدثنا عن أنواع الموسيقى المختلفة، الفرنسية والعربية. «أيهما أفضل؟» أجاب محمد وأبو بكر على الفور: «إنها الموسيقى العربية.» - «لكن لماذا؟ قلت، موسيقى الزواف، بآلاتهم، أقوى بكثير، تجذب أكثر.» - «لا، لا، قال أبو بكر، الموسيقى العربية لها كلمات، نفهمها، بينما موسيقى الفرنسيين ليس لها كلمات. ولدينا أيضًا، نحن التونسيون، موسيقى قوية... اذهب واستمع إلى موسيقى الباي، في المرسى...» - «آه! نعم، سمعتها» - «حسنًا، هؤلاء يعزفون بشكل مثالي وهذا جميل جدًا، لأنهم يعزفون ألحانًا تونسية نعرفها جميعًا (أنتم لا تعرفونها)، ثم إنهم متفوقون على الموسيقيين الفرنسيين، لأنهم يعزفون من رؤوسهم، بينما الآخرون يحتاجون إلى القراءة، وأثناء قراءتهم لا يستطيعون إعطاء كل قوتهم لما يعزفونه. علاوة على ذلك، يعرف التونسيون القراءة أيضًا، لكنهم لا يحتاجون... اذهب واستمع إليهم في المرسى، عندما ينفخون جميعًا في نفس الوقت، وقارن...»

كان محمد علي مستعجلاً للعودة إلى منزله ليقدم لزوجته علبة التونة. أغلق المتجر: «سأذهب لأشرف على العشاء، قال لي، بنظرة ذواق سعيد...؛ أرز بالحليب مع هذا سيكون جيدًا...!» وأنا أمشي في السوق، حيث كان الكثيرون يدندنون (لأن الجوع يجعل المرء يغني)، بجانب محمد وهو يحمل علبة المعلبات، كنت أتخيل هذا المنزل الغريب: امرأة جميلة، محبوبة، ترتدي له وحده صديرية فضية رائعة، وسروالًا ذهبيًا مطرزًا من صنعه، بقيمة تزيد عن ألف فرنك، مفضلة بقيت ربة منزل، يركض زوجها ليقدم لها وجبة نادرة من علبة تونة بالزيت مع طبق من الأرز بالحليب، وقارنت سهولة سعادة هؤلاء الناس وقلة احتياجاتهم بطغيان عاداتنا.

من كشك محمد وأبو بكر، يمكنك أن ترى رمضان كما يُعاش في قلب المدينة المسلمة، في مركز الإسلام المعروض في المتاجر، بينما يبقى

الإسلام في أماكن أخرى مغلقًا، محميًا، منيعًا. سوق البركة، الواقع عند تقاطع أسواق أخرى، يتيح متابعة حركة الحشود والمرور الجماعي بحسب الساعات. الجو هادئ بما يكفي لتبدأ المحادثات من متجر إلى آخر، ويتحول بسهولة إلى قاعة محادثة عامة، إذ أن عجلة العمل ليست كبيرة بما يكفي لإسكات المتحدثين. كثير من العاطلين يدركون ذلك، فهم يأتون للجلوس على حافة المتاجر.

النساء الصغيرات، اللواتي يُطلق عليهن في تونس بالاسم الصريح «قحاب»، يبدون مرتبكات تمامًا منذ بضعة أيام. ما زلن يأتين للتجول حول سوق المجوهرات المقام أمام شبك زنجي من ورقلة أصبح تاجر الماس، لم يصل إلى هذه المناصب إلا العبيد السابقون. لكن بدلاً من الهروب بكرامة أمام الإشارات أو النداءات، مجبرات بالدين على صيام الحب، متأكدات أنهن لن يُستفززن، يأتين للجلوس على لوح المتاجر، يتثاءبن حتى يزحن حجابهن، ويضطررن لإعادته على أنوفهن لإظهار أيديهن الصغيرة المحملة بالخواتم، ذات الأظافر المزينة بهلال أصفر. يشعرن بالملل الشديد بين هؤلاء الرجال الذين لا يقولون لهن شيئًا؛ يلففن حول أنفسهن بإيماءات عصبية، الطيات التي تغطيهن. إحدى هذه الإيماءات المألوفة، وأجملها، تتمثل في تكديس الحجاب على الكتف الأيسر، حتى لا يجر، ولفه هناك في ضفيرة؛ وأخرى في تدويره بسرعة حول الساعد المرفوع. ليس لدى جميعهن خواتم متلألئة أو ملحفات حريرية؛ يكتفين بالحجاب العادي، القطن الأبيض البسيط، الذي تحركه مشية أكثر تواضعًا. وأخريات، غير مباليات، زنجيات بشكل خاص، يلقين على رؤوسهن منشفة طويلة تعطيهن مظهرًا غير أنيق للمستحمات.

تأتي إلى متجر محمد علي كل صباح امرأة طويلة ذات نظرات فاترة، وأنف نقي مرسوم تحت عصابات وجهها. على الرغم من أنها سوداء كما تقتضي الموضة في تونس، إلا أنها ليست معتمة كبقية «العصبات»، ترتديها من التل، فتظهر بشرتها تحتها كضباب من اللحم. عندما تغضب

أو يكون لديها كلمة واضحة للرد، تمسك بين إصبعين صغيرين العصابة السفلية لتبعدها عن فمها، وتتكلم بصوت ممتد طفولي وحزين، ينتقل بسهولة إلى النبرة الخشنة. تتباهى، تجرؤ على إظهار عينيها وحاجبيها الأسودين كالحرير، قوسان لامعان بين التل غير اللامع.

انحنى محمد علي نحوي في اليوم الأول، وقال لي في أذني: «إنها ليست شابة، عمرها حوالي 26 عامًا، انظر، لديها تجعيدة تحت عينيها.» كانت تجعيدة صغيرة، قليل من الأرق، لكنها رقيقة جدًا، وكأنها أعلى درجات الرقة الأرستقراطية. على جباه النساء الأخريات، غالبًا ما لا يوجد سوى تجعيدة من العصابة السوداء، وقفص فوق العينين؛ جبهتها مستقيمة ومكشوفة تحت التل المشدود. أقدامها صغيرة غريبة، ليست طويلة بما فيه الكفاية، عريضة قليلًا، منتعلة بأحذية خفيفة زرقاء سماوية.

للاحتفاظ بالشاش الحريري الذي ينساب حولها، يبقى مرفقاها مضمومين إلى جسدها؛ تظهر هاتان النقطتان فقط بوضوح، والباقي يفقد شكله في كومة من الطيات وعبء من الحجاب. ومع ذلك، نرى من وقت لآخر، عندما تحرك ذراعيها، صدرية من المخمل الأخضر مزينة بالذهب، أظافر مقلمة على شكل لوز مغموسة في الحناء، والماس يتدفق في ظل الحرير الذي يُغلق بسرعة. اسمها حبيبة. سألتها عن لقبها، فأجابت مستغربة: «هذا اسمي الصغير، حبيبة. أليس لدى المسيحيين أسماء صغيرة كالتونسيين؟» انفجرت في الضحك، وأصابت التصغير الهدف.

زنجية رأت ضحكنا، جاءت لتضحك، وجلست في زاوية عتبة الخشب، وقدمت لنا علبة مستديرة من الذهب الخالص، تشبه علب الحلوى في القرون الماضية، ومليئة بالعنبر. دارت العلبة من يد إلى يد لتتلذذ برائحة العنبر والمسك الحامض القوي. لكنها لم تكن ملكًا للزنجية، بل عهد بها إليها «سيد» العلبة، صائغ يهودي عجوز وصل بعد لحظات، وفحص بسرعة من هو مستعد للشراء. لم يكن أحد، العلبة لا تزال تتجول تحت الأنوف، وانتهى بها المطاف في أيدي امرأتين شابتين أخريين اتكأتا على

دعامات المتجر.

أدهشتني نزاهة هؤلاء الحرفيين والنساء، وثقة اليهودي الذي ترك جوهرة ذهبية تنتقل هكذا، والماس جُرب على عشرة أصابع قبل أن يعود إليه، دون أن يشك لحظة في الغرباء. ليتذكر المرء نظرات رجال الدرك لدى صائغينا وأبوابهم المزدوجة المصممة حتى لا يهرب أحد. متعة التعامل مع المجوهرات هنا كبيرة كما لو كنا نشتريها.

استمر أبو بكر في شم العلبة الذهبية بحذر شديد، كأنه يخشى مفاجأة لحاسة شمه الرقيقة. قلت له: «أليس من الخطيئة شم الروائح في رمضان؟ يبدو لي أن بذلك يُفطر المرء، لأن الرائحة ليست سوى دخان صغير، بخار كبخار السيجارة؛ أنت تشرب بأنفك، هذا كل شيء...» رد: «لا، ليست خطيئة، لا»، تصرخ دائرة الناس بالإجماع. رأيت منذ أيام في شارع القصبة الكثير يسدون أنوفهم عند مرورهم أمام بائعي الأطعمة المقلية. سألت: «لماذا؟» أجابوا: «ليست خطيئة، لأنهم وجدوا رائحة القلي سيئة.» ثم ترددوا، لم يعودوا يعرفون. انتهى أبو بكر قائلاً لي بصوت منخفض، كقناعته الخاصة: «من الأفضل ألا تتنفس الروائح، لكنها ليست خطيئة...»

الزنجية صاحبة العلبة الذهبية استمتعت بالقصص الفاضحة، تروي بعضها وتضحك بصوت عالٍ، فتتشكل شفتيها الغليظتين كخط نقش متحرك تحت العصابة السوداء. عيونها مستديرة، طيبة، بلا خبث، تتسع باستمرار لاستعراض الكوميديا بين العصابات، بينما الجزء السفلي من وجهها يشكل خطمًا. لا تخفي يديها، أظافرها صفراء، وتتحدث بحرية. سألتها: «في النهاية، ماذا تفعل النساء في تونس خلال أيام رمضان، بما أن ذلك محرم بالدين، ويجب صيام الحب؟»

أجاب أبو بكر بسرعة: «يلعبن، يلعبن...» فسألته: «يلعبن؟ ماذا؟ كيف؟» أجاب: «يلعبن بالكلام، يمزحن، في انتظار غروب الشمس. ثم يذهبن إلى الحمامات، وبعد ذلك يمكنهن استقبال أصدقائهن طوال

الليل، لم يعد ذلك خطيئة.» حاولت أن أستفسر أكثر عن النهار، فارتج أبو بكر برعب وقال: «سيكون ذلك من سوء الذوق!» بينما كان محمد علي في المقدمة يؤكد: «لن تجد واحدة في تونس، حتى أفقرهن...» أدارت حبيبة ظهرها لي؛ كانت غاضبة، شدّت حجابها على مرفقيها، وابتعدت بمزاج عكر؛ تلتها المرأتان البيضاوان المتكئتان على عتبات الباب، وهما يتمددان تحت حجابهما، واستعاد اليهودي علبة عطره، بينما الزنجية تتثاءب، تكشف عن شفاهها الوردية، وتودع الجميع، حتى أنا، بلا ضغينة.

عند نزولي شارع الكنيسة، الوريد الطويل الملتوي الذي، مثل شارع القصبة، يؤدي من الأسواق إلى أسفل تونس، بدا لي تناقض الفتيات الإيطاليات والمالطيات اللواتي يحتفلن بأول قربان لهن، المعروضات في واجهات المصورين، بجانب الزواف الملونين في مجموعات، والنظرات القحة في وجوههن، غير اللائقة في المظهر، بشعرهن المقصوص «على طريقة الكلب»، شاشهن الأبيض ويداهن تحمل الشموع، - هذا كلّه يتناقض بشكل سخيف مع النساء التونسيات اللواتي رأيتهن للتو، متواضعات جدًا في مظهرهن، بالكاد جريئات في نظراتهن، يتجولن في الأسواق في فقر لائق وهن صيام .

أبو بكر، الذي تأخر بالأمس في المتجر، وصل ممتلئًا جدًا، منتعشًا، معطرًا بالورد، وكأنّه قادم من الحمام. لم يكن يعرف أين يضع جواربه البيضاء على الزهور الصغيرة في السجادة حتى لا يلوثها، سيقانه ممتلئة، ومرن في جلسته، يتمايل برقبته كالبجعة ويستعرض ذقنه الأبيض المحلوق، العمامة مشدودة، ملفوفة ومرتبطة بدقة، مكشوفة عند الصدغين. لم يبدأ أبو بكر العمل مباشرة، فقد ظل يلقي نظرات راضية على كتفيه ويشم نفسه متجددًا بهذا الحمام الممتاز، ثم شرح لي أن المرء يعرف بمجرد الدخول إلى الحمام كم تكلفته، من خلال عدد وثراء الحيكان والبشاكير التي تُغطى بها، سواء كانت حريرًا أو قطنًا، جديدًا أو قديمًا، تشير مباشرة إلى ما إذا كان الحمام بـ5، 8، 15 قرشًا، أو 1.50 فرنك،

ويقدم «سيد الحمام» حينها خدمًا ليغسلوك، بينما في الحمامات الفقيرة، يستحم المرء بنفسه. بعد تردد قال بعبوس: «لماذا تستحمون عراة، أنتم؟ هذا ليس جيدًا... لماذا؟» فشرحت له أن لدينا جميعًا ما يسمى «سراويل داخلية»، قصيرة جدًا، بدون أرجل. قال أبو بكر: «لكن جميع السراويل لها أرجل، لا أفهم...» وأوضحت له مفهوم «كا-لي-سون» الفرنسي. ثم تابع حديثه عن المسلمين الذين أرادوا رؤية الحمامات الفرنسية، ولم يُعطوا أي شيء عند المدخل، فطلبوا استعادة أموالهم وغادروا، قائلاً: «ليس جميلًا أن يستحم المرء عاريًا أمام الآخرين، آه!...» وعندما سألته إذا ما قيل له ذلك في المسجد، أجاب: «أوه! لا، الخطبة تشرح القرآن فقط، هذا كل شيء.»

من الحمام، انتقلنا إلى الحديث عن إزالة الشعر ومعاجينها. قال محمد علي: «ليست جيدة، الدابية. أعرفها: حجر أصفر، تحك به الجدار...» فسألته: «أحك الجدار؟» فأجاب: «نعم، تحك الجدار لتحصل على الجير، تضع نصف الدابية ونصف الجير لتذوب في ماء فاتر، تفرك جلدك، تنزع الشعر، وبعدها يجب أن تغسل مرة أخرى بماء ساخن، وإلا سيحترق جلدك، ثم ينمو مرة أخرى. الموس الصغير أفضل...» وأوضح أن «الدابية» تُستخدم فقط للنساء. ثم تحدث عن معاجين أخرى تُزيل الشعر إلى الأبد، وأشار إلى «رُسما دو سيراي»، وقال إنه يباع في الصيدليات الفرنسية ويزيل الشعر بشكل دائم، بينما أبو بكر حاول فهم أصل الاسم وربطه بقصر السلطان الفرنسي، وكان يكرر السؤال: «لماذا سراي؟» محمد علي يجيب: «من القصر، يعني أن سلطان فرنسا يستخدمه، وأنه عقار جيد جدًا...»

في متجر المطرزين جاء شاب في العشرين، عبد المجيد، شاحب، منهك، عينه ماكرة، شفته محدبة، يضحك ضحكة لاذعة تجعد خديه النحيلين، عمامته البيضاء الرفيعة موضوعة إلى الخلف، كأن رأسه مشدود بوزن شرابة الحرير الكبيرة المتدلية. يجر جسده النحيل في السوق، أنفه الطويل

مغروس في وردة يشمها أو يداعب بها خديه، أذناه محمرتان، ويقفز أحيانًا من وسائده، يسبب فوضى صغيرة بين المتاجر، بينما يصرخ محمد علي: «جويف، جويف، هو جويف!» عبد المجيد مطرز أيضًا، لديه برنسات متعددة وأدوات زخرفية، سألته عن زواجه فقال بنصف سخرية: «نعم، متزوج»، لكنه يلاحق النساء بنظراته ويمزح، ويوبخ كل من يرتدي اللون الأخضر المخصص للشرفاء، مؤكدًا أن الجهلاء والفلاحين لا يحق لهم ارتداء هذا اللون.

اليوم كان محمد علي مشتت الذهن، منشغلًا بباقة من الورود، يعيد ترتيبها ويشمها بعناية، يقربها من أنفه لتفحص قلبها برقة طفلة. اقتربت فتاة طويلة ترتدي قطنًا أبيض، وأصدحت بصهيل حاد: «انظر، البكوشة!» صاح أبو بكر ومحمد علي معًا، وأوضحوا أنها بكماء، لكنها من أجمل نساء تونس، محبوبة لرقة رقصها، تعبير عينيها شديد، حركاتها مضطربة، جسدها مرن جدًا، تمثيلي، تمشي كقطة، صرخاتها غير مفصلة. الصغار والفتيات يراقبونها بفرح بريء، يدلون بملاحظات صريحة، ثم عادت البكوشة لتكتسي الحجاب الصارم وابتعدت عبر شارع سيدي بن زياد.

ينشغل أبو بكر بمحاولة فهم صورة شهادة معرض وقعت بين يديه. في الإطار نرى التجارة تمد يدها للصناعة، والعلم يتألق مع البحرية، وبعض الأطفال العراة يتجولون بين التروس والمطارق. يسألني بعين غامزة لطيفة، كصديق حميم، وبصوت منخفض بما فيه الكفاية حتى لا تصدمني جهله: «ما هذا! ماذا يفعلون؟» آه! ليس من السهل شرح رمزية بالعربية! حاولت أن أشرح له: «إنها... صورة التجارة، تخيل يا أبا بكر، روح التجارة تمد يدها لروح الملاحة، أي أن التجار يمدون أيديهم للبحارة، بينما العلماء، الأولاماس، يصبحون أصدقاء للصناعة، للعمال في النهاية...» هز أبو بكر ومحمد علي رأسيهما بإيماءات متأملة، لكنهما ظلّا صامتين: لم يفهما شيئًا، وقد استنفدت، للأسف، كل قاموسي من المصطلحات

العربية المجردة. سأل أبو بكر بعيون فاحصة: «أليست هذه أصنامًا؟» فأجبته: «لا، إنها أرواح، رؤية... أشباح أناس غير موجودين.» لكنه واصل: «والأطفال، هل هم أطفال التجار، أم العلماء؟» آه! يا أبا بكر، يا مسكين، لم أجد جوابًا، غلبني الصمت.

عبد المجيد، الأقل إرهاقًا من المعتاد، وصل وفي يده غصن من الخلة، قدمه لي بلطف شديد. هو لا يهتم بالرموز ولا يسعى لفهم ما أشرحه لأبي بكر. يتأرجح متوازنًا على الأرجل الخلفية لكرسيه، وفجأة يمزق جلد غزال معروض في واجهة المتجر، وصوت التمزق يعلو فجأة فيقف ويقول: «هيا بنا، نتجول في المدينة، نحن الاثنان؟» قلت له: «أريد، يا عبد المجيد، هيا...» فانطلقنا بخطوات واسعة، لأنه، بمجرد أن يتحرك، يكون دائمًا في عجلة من أمره للوصول إلى... أين؟ هو نفسه لا يعرف. كنا نركض في الشوارع البيضاء المهجورة التي تنزل من المحكمة نحو حي باب سويقة. أراد أن يريني «الحفصية»، نوع من الترسانة حيث كانت تُصنع في الماضي مدفعية الباي، وهي اليوم فارغة، أرضها مهدمة، أبوابها بلا مفصلات، الشارع مرصوف جيدًا، طويل، واجهته منازل برجوازية، أبواب كبيرة منحوتة، قليل من الفتحات الصغيرة، نادرًا ما تُفتح المصاريع الثقيلة. هناك يسكن التونسيون الأغنياء. بعض هذه المنازل، الممتدة على جانبي الشارع الذي يمر تحت قوس، لها مظهر حصن. أعمدة قديمة منتصبة، كتل منحوتة بنقوش، تعزز زواياها أحيانًا.

بعد الحفصية تتشابك الشوارع المماثلة، بيضاء، مغلقة، بدون متاجر، نصادف عجائز يتحدثون مع أنفسهم، ومجنون هائم، عاري في كيس، يحمل سكاكين ويضحك بسخرية. من حين لآخر، قبة مزينة بنقوش قرآنية، قبتها خضراء من القرميد المطلي تتلألأ بهدوء في ظل المنازل العالية التي تحيط بها. عندما يرقد قديس تحت سقفها، تسمى القبة هنا بالأحرى «مقبرة».

الشوارع التجارية، الصاخبة بالمتاجر والحشود، تبدأ في الأسفل،

معقدة بممرات مسدودة وبدايات أزقة خادعة، أسماؤها ممتعة للقراءة مثل صفحات رواية. إنها تاريخ الحي، اختراعات «الباب إلى الباب» تُروى عند زوايا الشوارع، الحياة الشخصية للتقاطعات بلا تدخل بلدية مستبدة. لا شيء خلاب، لكنها ساحرة أحيانًا بالاكتشاف، استحضارات قصيرة لأحداث غير معروفة، ألغاز مقترحة للمارة. يا لها من أصالة، ويا لها من دعابة، عندما نتذكر أسماء العظماء المفروضة على شوارعنا والمتغيرة حسب العواصف الانتخابية! إنه شارع الجالسين، شارع الصارمين، سوق الأسلحة، شارع الأصابع الخمسة، شارع النساء، زقاق السيف، زقاق القمر، وشوارع أخرى مثل «شارع البلدية» و«شارع المحكمة»، لكنها سرعان ما تُدمج وتُخفى باسماء مثل شارع الراوي، شارع أولاد السيد المبالغ، زقاق السيد المجنون، شارع العذارى، شارع السيدة المعطرة، شارع الكبد، الشارع العابر، باب برج النار، شارع الشعبي بالخير، شوارع الصاعقين، حمام الرامي، وجامع الفتات. كم تناسب هذه الأسماء بحرية تحت حكم الطغاة الشرقيين، وتخون هي نفسها حاجة الشرقي لإخفاء حياته، كم هي الممرات منحنية أمام الأبواب حتى لا يُرى الداخل، والارتدادات في الأزقة، عمل لعقول غير قادرة على الخطوط المستقيمة، تتربص دائمًا خلف رد غير منطقي، وتخرج عن مسارها، ولا تسمح بإيقافها مباشرة.

كنت أفكر في ذلك وأنا أرى مجموعات من الأصدقاء، جالسين اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة على عمود حجري، مختزلين إلى لا شيء في زاوية منخفضة لجدار، يضمون برنساتهم، يركبون ركبهم ليبنوا لأنفسهم خيمة صغيرة من الحميمية في مأمن من المارة؛ رؤوسهم مغطاة، مقوسة بعمامات سميكة، وجوههم قريبة جدًا، يتحدثون بصوت منخفض ورفيع، ويتبادلون نقرات صداقة حنونة. نرى من يتجاوز بعضهم البعض في الحشد: الأول يضع يديه خلف ظهره، الثاني يترك نفسه يُقاد وهو يضع أصابعه في تجويف الراحة، بخفة، كأصابع تلمس وعاء ماء مقدس.

تجولنا طويلاً، عبد المجيد وأنا، ووجدنا أنفسنا في ساحة، في حي مضطرب، قرب سوق الأغنام، حيث يقيم خلال رمضان عيساوية وعارضو الثعابين وبهلوانات من سوس، يقومون بحركاتهم المعتادة: عجوز يثقب خده بمثقاب في ثقب مُعد بشكل دائم، أو يترك أفعى تعض أنفه حتى يسيل الدم على وجهه. محاكاة الألم شديدة جدًا، والانتقال من المزاح إلى الواقع مُدبر جيدًا لدرجة أن البهلوان العجوز، بتقلصاته، يثير الرعب.

الأكثر غرابة هو مجموعة الأيدي اليمنى التي تلامس جباه المتفرجين، أو كلتا اليدين تلامس الصدغين، عندما ينطق الرفيق الذي يعزف على الدف أبياتًا، أسماء سيدي عبد القادر الجيلاني أو سيدنا عيسى. يحيي عبد المجيد، وأنا أيضًا، أنتهي بالتحية وأضع كلتا يدي على صدغي تحت قبعتي المستديرة. اثنان من المتسولين يقفان أمامنا، مندهشان جدًا، مسروران جدًا، لدرجة أنهما يبتعدان ويدفعاننا، أنا وعبد المجيد، إلى الصف الأول من الدائرة حيث يمكن الرؤية جيدًا؛ أحدهما زنجي عجوز أشعث، جبهته مرصعة بقشور البرتقال لتزيين عمامته، لا يتوقف عن الابتسام لي والإعجاب بي. وبصوت واحد نهمس جميعًا: «سيدي عبد القادر، سيدنا محمد، عليه السلام...»

للعودة إلى سوق البركة، تسللنا عبر متاهة من الأسواق، أسماؤها دقيقة وتشير إلى المهن التي تُمارس فيها: سوق النعال، سوق الأحذية، سوق النحاس حيث تُدق القدور بضربات صغيرة دائرية، وسوق لفافي الخيوط، المليء بالخيوط التي يهرب بها الأطفال، وفي كل مكان تقريبًا الأقبية الرطبة لصانعي الشاشيات، الذين يصطفون أمام المكابس القوية اللولبية لتشكيل لباد القلنسوات البيضاء الممتازة في تونس، الحمراء السيئة، والمثالية في زغوان، مسلحين بنبات شوكي يمسكونه كزهرة ويمشطونه بإيماءات هواة.

مع اقتراب المغرب، تخف روائح الجلد والشاشيات الرطبة برائحة الإسطبل والريف، ورائحة شعر وحليب الماعز التي تصعد في الشوارع

وتباع على أرجل الباعة. لمدة ساعة أو ساعتين، نسمع في الأزقة الحزينة بائع حليب البقر، الذي يحمل مقاييسه على حزامه ويصرخ بصوت رفيع: «الحليب، الحليب!».

عندما يكون الطقس رطبًا ومظلمًا، وتنسكب الأسواق من خلال فتحات السقف، تشكل البرك على الأرصفة الزلقة البلاط البالي، ويخفف ذلك ألوان الناس ومرحهم: الشياطين الكبار يقفزون فوق البرك ويسقطون بخفة تحت زخات المزاريب، بينما يشعل التجار شموعهم في أوكارهم المظلمة. أحذية النساء، من جلد الماروكين الأزرق السماوي أو الورنيش البرتقالي، تُلبس دائمًا كنعال دون إدخال الكعب، تنزلق في الطين، والحجاب الأبيض المبلل يعطيهن مظهر حزم يشبه الغسيل العائد من المغسلة. تتمايل الأثداء الكبيرة للسيدات اليهوديات بشكل واضح تحت المشدات، والكثير منهن يضعن أيديهن على مستوى الصدر كحجاب للحشمة أو ربما كإيماءة غريزية عالمية في الجنس البشري. أما اليهوديات الصغيرات، بالكاد بالغات، وجوههن الداكنة محمرة قليلًا من قطرات المطر، وخصلات شعرهن المجعدة مبتلة، يمررن في الأسواق حافيات القدمين تحت حزام قبقابهن، يلامسن بسيقانهن العارية والممتلئة.

جميع تجار سوق العطور، الأكثر ظلمة من الآخرين، ينزلون شمعة من أكشاكهم ويشعلونها عند سفح برنسهم، وأرجلهم متقاطعة. تنحني الأعشاب البرية برؤوسها في فتحات السقف، بينما يجلس عازف العود في الظل ويداعب بأصابعه الأوتار منخفضة النغمات؛ المتدينون يتوجهون إلى جامع الزيتونة، وسترته الزرقاء السماوية عند المدخل تحفظ القليل من الضوء الذي يرسم انعكاسًا واضحًا في السوق.

بالأمس، عرض عليّ بائع حلوى «النوغا الوزيرية»، البيضاء بالكامل، والتي تحتوي على عجينة أكثر من اللوز، مقابل «قروبتين». رفضت، فصرخ: «آه! أنت تصوم رمضان، تصوم مثلنا، جيد، هذا جيد!» وقفز على رقبتي وضغط على يدي، والدموع في عينيه، ولم أمتلك الشجاعة

لتصحيح خطأه. وبجانبه، على درجات الجامع الكبير، كان متسول مبلل يجلس القرفصاء على الرصيف، يغني بصوت مرح لنفسه على لحن صلواتنا المسائية: «يا ربي، يا أولاد حلال». هذا الترنيم بالعربية تحت المطر بدا غريبًا جدًا، ويبدو أن الجوع ورمضان يجعلانه يغني.

تحدث معي محمد علي قبل بضعة أيام عن أغنية تسمى «الطرنقالي»، لكنه رفض أن يخبرني بها، وأبا بكر بدأ بالضحك دون أن يريد أن يجيب. والزنجية صاحبة العلبة الذهبية جلست في زاويتها المعتادة، لم تعرف الأغنية، وكان شعوري بالإحباط كبيرًا؛ لم أعرف أبدًا ما معناها. سألت أبا بكر عن شخصيتها، فأجابني سريعًا: «ليست قحبة، إنها امرأة شريفة، أم عائلة تبيع المجوهرات، بنت الناس!» يا له من خلط، وأنا الذي كنت أحكي لها قصصًا من حكايات الجنود، وكانت تضحك كثيرًا لسماعها وتروي لي أخرى لا تقل فجاجة. مسكينة، بنت الناس حقًا!

وصل عبد المجيد حينئذ، وأعطاني معيارًا للتمييز بين «بنات الناس» وأخريات: إذا كانت العصابات السوداء مغلقة جيدًا على العينين، والحاجبان مخفيان، ولا ترمقك بنظرات، فهي امرأة شريفة، حتى لو لم تكن ترتدي «العجار»، بينما الأخريات لديهن ملابس براقة، ملحفات وردية، جوارب حريرية زرقاء أو خضراء، أحذية برتقالية، وعصاباتهن غير مغلقة جيدًا، يصرن على النظر إليك.

انطلقنا لنتجول في المدينة، وبعد مسافة قصيرة تلقينا نظرة كبيرة الدلالة من عينين جميلتين بطيئتين، شابتين: جوارب زرقاء، أحذية خفيفة وردية، عين مكشوفة من العصابات، ياقة كريمية منتفخة خارج الملحفة، ووجه صغير جميل يتصنع تحت الكريب الأسود. عبد المجيد قال: «هذه، بنت الناس، شريفة جدًا».

بعد خمس دقائق، تتقدم نحونا سيدة ضخمة ومهيبة، عيناها صارمتان، قدماها مخفيتان تحت حجاب طويل ورأسها مرفوع، فأخبرني عبد المجيد: «هذه لا خطر منها، إنها قحبة». قلت له: «إذن أنت تعرفها؟»

قال: «لا، من مظهرها فقط!» أمام هذه الصعوبات المتكررة في التشخيص، شعرت بأنني أقل ذنبًا تجاه الزنجية بائعة المجوهرات.

وصلنا قرب شارع السراجين، ووضع عبد المجيد يده على مقبض الباب وقال لي: «لندخل، أنا أعرفه، هذا متجر محمد الطاهر.» الرجل العجوز اللطيف، عينه ذكية ووجهه نحيل، نهض وسط دائرة جالسة ومد يده لتحيتي، وأخذنا في مجاملات متبادلة تعثرت بعض الكلمات فيها بسبب سوء النطق. محمد الطاهر يعمل في وظائف رسمية في المدينة، بينما يظل سراجًا بمهنته، وهو مثقف تلقى تعليمًا إسلاميًا جيدًا، ما يجعل حديثه مطلوبًا. أصحاب الدخل التونسي، بوجوه برجوازية، يقدمون لك نشوقًا في علب تبغ ذهبية منقوشة، يضعون طيات برنساتهم في سقوطات متقنة، ويستلقون على عصا بمقبض فضي، يصطفون على مقاعد المتجر، الواسع جدًا مقارنة بمحلات الأسواق المسقوفة. البعض الآخر، أكثر تواضعًا في الزي، حتى بالبرنس المثقوب، يأتون بألفة ليأخذوا مكانهم في دائرة الأغنياء ليتعلموا من المحادثات والخبرة، فيما يستقبل الطاهر الجميع بـ«مرحبًا» بإشارة من رأسه، ولا يترك أي حسابات أو قصص دون أن يرويها.

حول الطاهر السروج إلى ألواح خشبية، أغطية من جلد مطرز، هياكل سروج ذات ظهر مشدود بالرق، ركاب، لجام وخطم. لم يعد يعمل بنفسه، بل يجلس أمام لوح منخفض، بالقرب من خزانة صغيرة، تشبه أثاث دمية، حيث يحبس قوائم الأرقام وأثمن التطريزات. خلفه، بالقرب من الخزانة، يقف كاتب-محاسب، فتى سمين بشفتين مفتوحتين وعين مستديرة، وعمامته أضيق من اتساع خديه. الطاهر، الرقيق ذو العين الذكية والفم الذي لا ينضب من المجاملات، واللحية المستوية في طرف مدبب، يسحقه بتفوقه كرجل عالم ورب عمل، ولا يتردد في توبيخه بصوت عالٍ.

أُعجبت بالسروج والأغطية، فقال الطاهر: «نعم، بعضها جميل،

لكن ليس كثيرًا. لم تعد التجارة جيدة، لم يعد أحد يركب الخيل في تونس؛ السيارات والسكك الحديدية قد غلبت الحصان. في الماضي كنا نذهب في رحلات قصيرة حتى قابس، ننطلق في مجموعات؛ كان الأغنياء يريدون سروجًا ذهبية جميلة ليظهروا بها في الطريق؛ اليوم يركبون السكك الحديدية؛ تغيرت الأزمان، ‹الماكينة› قد جاءت... كل هذا يأتي من باريس... كان المعرض جميلًا جدًا، أليس كذلك؟ ويقال إن هناك برجًا من الحديد، عالٍ جدًا.

اضطررت إلى وصف الآلة المزعجة لرفع الفضوليين حتى ثلاثمائة متر. استمعت الدائرة متأملة، تنتشر جرعات صغيرة من النشوق، والذقون تستند على العصي. لكن الطاهر، على الرغم من اهتمامه بالبرج الحديدي، عارضني فجأة ببرج آخر تحدثت عنه «الكتب»: «الارتفاع، لا أعرف، لكنه كان بعرض خمسة أيام من السفر بحرًا.» قال رجل فقير في زاوية: «مثل السودان.» أجاب الطاهر: «لكن لا، السودان أوسع.» وأضاف آخر: «لكن بلى، خمسة أيام...» وقال الطاهر: «أخيرًا أراد الرجال والأرواح الوصول إلى الجنة...» همست بخجل: «بابل، برج بابل؟» قال الطاهر: «نعم، بابل، هذا هو.» صاحت الدائرة مملقة لي. وأضاف الطاهر: «لكن الرجال والأرواح تشاجروا وتم التخلي عنه، كان يلامس السماء بالفعل...»

بعد ذلك، وضع أحد أصحاب الدخل المحادثة على عجائب الدنيا، وسألني عن الأقزام المعروضين منذ أيام في شارع فرنسا. قال الطاهر: «الليبوتيان، هل هم أطفال أم كبار؟» وأجابني بحماس: «إنهم رجال حقيقيون! الزوج ضابط، لديه سيف، يتحدث جيدًا جدًا ويمد يده؛ زوجته تحيي بأدب ولها أيدٍ كأيدي حديثي الولادة، ولديه لحية.» فسأل أحدهم بسرية: «هل ينجبون أطفالًا؟» وأجاب الطاهر أنه عرف قزمًا في تونس كان لديه طفلان، لكنه كان أقل رقة وأقل نحافة من الليليبوتيان، وأضاف: «في الكتب، قبل مجيء سيدنا عيسى، كان لزوجين طفل صغير جدًا بحجم دجاجة، وتزوج وأنجب طفلاً أصغر، حتى يوم دخل البحر

وأمسك سمكة وأكلها، فكبر رأسه حتى ضاع في السماء...»

الطاهر، الذي كنت أحثه على سرد قصص أخرى، نظر إلى ساعته واعتذر فجأة، ينهض ويصافحني: يجب أن يذهب إلى الصلاة، وقرر عبد المجيد مرافقته. ذهبت أنا عبر شارع الزواوي لأرى الشمس تغرب خلف التلال الناعمة خارج باب سيدي عبد الله.

في ممر ضيق على حافة محجر شديد الانحدار، التقيت عربيًا جالسًا، فتحدثنا عن باريس والعشب، وحجمه مقارنة بتونس وإسطنبول، والمزحة حول سلطان إسطنبول أضحكته بشدة. كان الضحك يتردد في الأسفل، وشعرت بأن هؤلاء الناس الطيبين، بعيدًا عن تجربة الحياة، مدربون على اللطف والصدق والصداقة، لكن قريبًا سيختفون كما هو الحال عندنا.

من المرسى، يأتي الباي كل يوم إلى تونس خلال رمضان، ويوم السبت فقط في الأشهر العادية. حوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا، يخرج التونسيون من تونس ومن الأقاليم بعد انتهاء جلسات المحكمة ويبقون للحديث في الجوار انتظارًا لخروج الباي.

ساحة القصبة، المؤطرة من الشمال بقصر بلدي جديد على الطراز العربي، تحتلها حديقة صغيرة مرفوعة على أساس من الحجر، حيث يجلس المتقاضون والعاطلون والعجائز والمتسولون والأطفال. النساء الشابات والعجائز، شريفات أو فضوليات، يتجمعن على درج ضيق يطل على الساحة المنحدرة، ومن هناك تصل فرقة الخيالة التونسية، ينزل الفرسان ويصفون خيولهم حول الحديقة وينتشرون في الحشد. الخيول المتروكة حيوانات أليفة، بعضها جميل جدًا، السروج نصف فرنسية، غير متناسقة؛ السيوف غير موحدة؛ جنود بسترات هزيلة وباهتة. شاشيات لا تلمع كثيرًا على الجباه.

ثم تصل سيارة برلين تجرها ست بغال أمام باب القصر، تذكر بسيارات الزفاف بفوانيسها الثقيلة وشبكاتها النحاسية الحمراء الكبيرة. الداخل مبطن بقماش، موضة الألوان المتحضرة، والبغال مسرجة

على الطريقة الفرنسية، لكن الطوق الجميل حول الرقبة من حلقات النحاس يعطي مظهرًا احتفاليًا صغيرًا ومستقلاً. ينزل سائق الباي للتجول في الحشد، الذي يزداد شيئًا فشيئًا كلما اقتربت الساعة، ويتكدس نحو باب المحكمة. يبقى المتسولون جالسين، غير مبالين: عجوز مقعدة، وآخر يعرض جمجمته للحرارة، وآخر مضطرب بيدين مفككتين، يحمل رأسه في ظهره ويعيد ربطه، وكأنه مروحة حية، برتقالة تكمل نضجها في الشمس. المجنون عاري الصدر في كيس، ينبح ويضحك ويشم حوله، يشعر بالبرد على ظهره المغطى بالتمزقات الدامية. ضابط مزين ب»الافتخار« يقترب لإقناعه بعدم الاقتراب من سيارة الباي، والفضوليون يتجمعون في دائرة حول الحارس، الذي يوجههم ويضحك معهم، يسأل ويجيب بلا انقطاع.

بين هؤلاء المتفرجين، كان هناك، إلى جانب بعض البرانس النظيفة والحياك البيضاء، عدد لا يُحصى من أصحاب الأغطية الممزقة، والعباءات الخشنة، والأقدام الحافية التي ترتدي نعالًا من القش! لكن لا يهم؛ فلا أحد يعاملهم بقسوة؛ هم أحرار في ملامسة سيارة الباي، والتزاحم عند المخرج، والانحناء للرؤية، والتحدث بصوت عالٍ. لا يوجد طوق من القوات؛ فالقوات نفسها تتحدث وتلعب في الخلف.

فجأة، يتردد صدى حوافر تحت الردهة ذات القوس العالي. ينتصب الحارس، متخذاً وضعية التمرين الفرنسي التي تعلمها مؤخراً، لكن ها هو بغل يخرج وهو يهرول. يحمل البغل على ظهره حقيبة جلدية مزدوجة بالية، مطرزة، ومكتظة. يشق البغل طريقه بنفسه في الحشد ويتوقف عند جدار.

هذه الحقائب لها مظهر من الأهمية يثير الفضول؛ فأقترب، وأرفع زاوية الغطاء الجلدي: إنها سجلات، أوراق. في نفس اللحظة، يقول لي صوت من الخلف بلطف: «ممنوع، لا يجب أن تلمس.» إنه جندي من الحرس، كان يستعد للعودة إلى حصانه، وهو يبتسم لي.

تبع خروج البغل خروج مهيب للموظفين والوجهاء، جميعهم مسلمون

بالطربوش ذي الشرابة الطويلة، لكنهم أوروبيون في السلوك، بعضهم شبه جنود، بسترات مزينة، والبعض الآخر بمعاطف سوداء. وزنجي بشع برأس جثة، خطم لامع منحوت من الفحم بفكين كلب شرس، معطف «بندقي» وسترة بيضاء، يبعد الناس بمظهر متعجرف؛ يحمل «افتخارًا» عريضًا من الألماس على صدره وياقة عالية على الموضة في باريس. ملحقون شباب أو خدم كبار في الوزارة، أكثر باريسية في الملابس منا، يهزون بتأنق شرابة شاشيتهم ويعذبون وردة بأطراف أصابعهم المرصعة بالخواتم.

وأخيرًا، ها هو الباي: معاطف أخرى، لحى رمادية مهندمة، أذرع تساعد عجوزًا، باب يغلق. هل صعد بالفعل؟ لم يكن لدى أحد الوقت لرؤيته، ولا حتى حارس القصر، الذي بقي متجمدًا في وضع «تقديم السلاح» لأنه قام بالحركة متأخرًا جدًا. لا صراخ، لا هتافات، إلا ضحك المجنون الذي يقهقه خلف السيارة.

بأسرع ما يمكن، يعود فرسان الحرس، الذين لم يكونوا جميعهم على خيولهم، ويصطفون مرة أخرى. وأربعة شيوخ وسيمين ببرنسات زرقاء بالية، برؤوس بطريركية ولحى بيضاء، يقفون أمام البغال الستة حاملين على سروجهم العربية بنادق قديمة ذات كبسولة. وضباط الباي، بوجوه متعالية وعائلية، بسترات طويلة، يقسمون الحشد ويتحدثون معهم بلا خشونة: «برة، بالك، برة شوية.»

لا يصطف الحرس جيدًا؛ البطريركيون الأربعة بعيدون بالفعل في المقدمة: لم تنطلق بعد سيارة البرلين الرسمية. تمتلئ سيارات الوزراء وتتبعها؛ عند زاوية الساحة تتوقف واحدة، ينزل السائق بمعطف مزين بالذهب، يشد الحزام السفلي للسيارة، بينما الوزير ينتظر على الوسائد، أصابعه على خنجره المنحني، جوهرة قطع رؤوس بمقبض ضيق جدًا ونصل واسع جدًا. أخيرًا يغادر الوزير، ومع أن الفوانيس بلا فائدة خلال النهار، فقد ملئت بالورود المتفتحة، متساقطة الأوراق، لتنشر وهجًا ورديًا معطرًا.

لا تزال هناك سيارة متوقفة في الساحة: أجمل الملحقين الشباب، الذي كان الفضوليون يعجبون به، قد صعد إلى العربة ويتشاجر مع السائق الإيطالي بأنف محمر وخصلة شعر متفاخرة خارج القبعة: «ثلاثة فرانك!» يصرخ الإيطالي. الملحق يشير بيديه ويحتج، ويحمل وردته في يده. ينزل الملحق الشاب ويبتعد سيرًا على الأقدام، بينما السائق يضرب قبعته على خصلة شعره ويصرخ بكل الشتائم التي تملكها إيطاليا وصقلية وسردينيا مجتمعة.

آخر من يغادر، بأسف شديد، هن النساء اللواتي شاهدن المشهد من أعلى الدرج، متجمعات بنظام كصف من المحتفلين بأول قربان في حجاب أبيض. العجائز يثرثرن بصوت أنفي، والشابات يتناقشن حول أسماء الشخصيات. نسمع عند المرور بقايا جمل كهذه: «باينا يأتي كل يوم للصلاة...» «عزيزتي، إنه يصلي باستمرار، باينا ليلًا ونهارًا...» «...لكن، لا، أؤكد لكم، ابن عم سي عزيز، ليس هذا الشاب الذي أراد أن يركب في العربة...» يبتعدن عبر شارع السراجين، متكئات كالعجائز على عصيهن غالبًا ملتوية بخطوط مطلية، ولا يعطين شيئًا للمتسولة التي في الظل الواسع للمسجد، تطلب «خبزة صغيرة» وتحشو أنفها بجرعات ضئيلة من التبغ.

في المحطة الإيطالية، وجدت نفسي عدة مرات في لحظة وصول موكب الباي:

ينطلق الشيوخ الأربعة الذين يرتدون الزي الأزرق في عدو أشبه بـ «الفانتازيا»، ويتجاوزون بعضهم البعض. تتبعهم البغال الستة اللامعة وهي تجر العربة الباهتة، ثم يأتي الضباط التونسيون الوسيمون، النحيلو القوام، السُمر الذين يبدون حزينين قليلًا. وأخيرًا، يندفع الحرس في عدو غير منتظم ضمن الاصطفاف.

يتوقف العدو فجأة في هذا الغبار أمام المحطة.ويخرج عجوز بوجه عابس من العربة بمساعدة وزير القلم. بالكاد تظهر بعض الرؤوس

المتقدمة من قبل الفضوليين لرؤية الشخصيات التي تدخل وسط المسافرين والحقائب. بعد ذلك، تُطلق صافرة، وبعد قليل، تُرى عربتان تنطلقان نحو المرسى، تحملان الباي ووزراءه على حافة البحيرة في سهل المحاصيل الأخضر.

سألت أبا بكر: لماذا يأتي الباي كل يوم في رمضان؟

أجابني محمد علي بسرعة: «للصلاة».

وقال أبو بكر: «لأنه، بما أنه لا يأكل، فليس لديه ما يفعله طوال اليوم».

فسألت: «للتسلية إذن؟ لتمضية الوقت؟»

قالا: «نعم».

سألت: «هل لدى الباي الكثير من النساء؟»

أجابا: «أوه! كثير، كثير...»

فسألت: «ولكنه عجوز، إذن؟»

قالا: «يقبلن يده».

فسألت: «من هن؟ هو لهن؟»

قالا: «لا، هن يقبلن يده، دائمًا».

رويت أيضًا لعبد المجيد أنني رفعت جزءًا من الحقيبة المحملة على البغل، فقال لي بخوف: «هل نظرت في الداخل؟» أجبته: «نعم، لكنها حقيبة الحكومة! مليئة بالذهب والفضة؛ لا يلمسها إلا وزير القلم!» ومع ذلك، بدا لي أن المحفظة الوزارية لم تكن مليئة سوى بالأوراق. أخيرًا، وجب علي أن أصدق، بما أن الجميع يؤكدون ويوبخونني على جرأتي.

إعادة صياغة مختصرة دون إضافة:

ظهر متسول ضخم بعيون معتمة، منهكًا أكثر من غيره، وانخفض بجانب الكشك وهو يردد بتوسّل شديد طلبه للمال. عبد المجيد، المنشغل بأفكاره حول حقيبة الباي، رد بلا اكتراث: «الله ينوب». وعندما واصل المتسول الإلحاح، شدّد

عبد المجيد العبارة أكثر، ثم انفجر صارخًا بها من الغضب.

كم هي مضحكة هذه الكلمة من الأخوة الرحيمة، التي تُزأر في وجه الفقير! بما أنه لم يتحرك بعد، وضع عبد المجيد يده على خرق عمامته: «تتكلم؟» سحبها المتسول بطاعة. شم عبد المجيد أنفاسه: «ألا تصوم رمضان؟ أنت تأكل!» احتج الآخر بعينيه المسودتين: «أوه! لا، سيدي، أنا لا آكل، أنا أصوم... بالله، سيدي.» شم الشاب الأنيق أنفاسه مرة أخرى، وبنظرة مهددة: «همم؟ أنت تشرب الخمر!» «أوه! لا، سيدي، أشهد بالله.» - «أتكذب؟» «لا، لا يا سيدي.» - «خذ!» أعطاه «قروبة» (أربعة سنتيمات). رفع الآخر هيكله العظمي الكبير بصعوبة وغادر وهو يجر ساقيه الرخوتين في السوق.

هناك تونس أخرى أكثر تخصصًا، وأكثر فراغًا على مساحات واسعة، لكنها تعطي نغمتها في المجمل، في نهاية شارع البحرية، الذي جعل شاعرًا منحطًا يقول:

تونس / تشبه نيس / متجهة نحو البحر / بشارع / عارٍ تمامًا / كصحراء.

إنه الميناء المحاط بالحناجر، ميناء الفلايك ذات الخدود الموحلة، والأشرعة المبهجة، التي تبحر بين تونس وحلق الوادي. في الأوقات العادية، تكون هذه الأرصفة المصغرة أكثر نشاطًا، وذهاب وإياب القوارب أكثر ازدحامًا، وصراخ المفرغين أكثر استمرارًا. منذ رمضان، لا نرى سوى بعضهم نائمين على بالات، تحت أغطية؛ زنجي واحد فقط، حافي القدمين، بلا قميص، بسروال احتفالي ومعطف من قماش أسود ناعم يفرغ أكياس الفحم من قارب. عندما يرتدي الطربوش، يبدو كقرد مزين للعرض؛ وعندما يرتدي سترة، يظهر كخادم؛ مع البرنس الأبيض والحايك، يظهر كرجل. لا نسمع سوى صرير حبل على القارب، وصدمات قاع القارب على الطين، وفي ساعات معينة، تحت حظيرة تستخدم كسوق للحبوب، دويتو غريب بين البائعين والمشترين وهم يعدون الأكياس الممتلئة: «أربعين، خمسين»، على لحن باعة الماء الصغار في الجوقة النهائية لـ«كارمن».

لم نعد نرى سائقي العربات يلعبون «القفز فوق الظهر» في فترات راحة عملهم؛ لم تُنظم صفوف القافزين الطويلة، حوالي الظهر. بالكاد سائق أو اثنان من هؤلاء السائقين التونسيين، رشيقين في حركاتهم وأيديهم رقيقة، يمسكون سياطهم كغصن مزهر، يجلبون عرباتهم العالية جدًا على عجلاتها بحيث تنقلب رأسًا على عقب لتفريغ حمولتها. فقط رجال الجمارك يقومون بعملهم المعتاد، يتثاءبون ونائمون على الرغم من أنفسهم.

صار أحدهم صديقي؛ كلما رآني رحّب بي ودعاني للجلوس على جلد الخروف الذي يجلس عليه. اسمه الحاج أحمد: نحيل، عصبي، جاد، وحزين، بعينين تائهتين نحو حلق الوادي وجبل الرصاص، كأنما خُلق ليحلم أكثر مما يراقب. رغم ثيابه الرسمية، تظهر في حركاته ملامح القروي الحر المتمرد على الانضباط. قلنسوته القطنية البيضاء، البارزة تحت الشاشية الحمراء، تمنحه هيئة رجل يضع قبعة برجوازية بلا تكلف.

صوته خافت وحنون، يذكّر بنبرة الكهنة. شديد التديّن، وقد أدّى الحج مرة، ويدّخر ليعود إليه بعد أن يترك خدمة الباي ويرجع إلى مسقطه في واد سوس بالمغرب. أصبحت صداقتنا وثيقة منذ أن قدّرني، وقد بدأ تقديره لي يوم غلبني في مسابقة في العلم القرآني: كنت أجلس على جلد الخروف وهو على عارضة خشبية احترامًا له.

كان الأمر يدور حول من يستطيع تلاوة أكبر عدد من السور عن ظهر قلب. جذبني، الخائن! بمناورة لاهوتية يحب العرب القيام بها، إلى سورة 112، الإخلاص أو التوحيد. «هل تعرفها؟» - «إذا كنت أعرفها! قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد...» كان يشرق: «وهل تفهم معنى كل الكلمات؟» - «نعم، ... انظر: هو الله الواحد، الله الذي لا يتجزأ...» - «وبعد؟ لم يلد؟» - «لم يلد، ولم يولد.» صرخ: «حسنًا! لماذا يقول الكهنة المسيحيون إن لله ابنًا، بينما الكتاب يقول إنه لم يكن له ابن؟»

«انتظر قليلاً، يا أحمد، حتى أوقظك!» صرخ صوت غاضب لرئيس فرقة جمارك، والبايب في فمه، يقترب. «لو أكلت في النهار، لأديت خدمتك بشكل أفضل.»

نهض الحاج أحمد، وركض ليلقي نظرة على قاربين من حلق الوادي كانا يحاولان الدخول إلى القناة، والبحارة يئنون على أعمدة طويلة تثير فقاعات ثقيلة في الطين الأسود، ككتّاب بأقلام طويلة يبحرون على محبرتهم. ثم عاد نحوي، ووجهه لا يزال مشرقًا بانتصاره اللاهوتي: «لم يلد!» - «نعم، نعم، قلت بمظهر تائب، لا مجال للجدال، إنه مكتوب بحروف واضحة، الباباوات يجهلون ذلك: لم يلد ولم يولد.» في تلك اللحظة، شعرت أنه تمنى، في قلبه الساذج، أن أعتنق الإسلام في اليوم التالي، ولا بد أنه كان فخورًا بذلك طوال يوم حراسته، الجمركي المستعبد على طول قناة الطين: لقد كان يهدي كافرًا، هو، الذي سيصبح حاجًا للمرة الثانية قريبًا.

منذ ذلك اليوم، آتي للحديث مع الحاج أحمد من وقت لآخر. يعد في خياله رحلته القادمة إلى مكة بمجرد انتهاء رمضان. كطفل يحلم بصوت عالٍ بالتحرر، بالعطلات: «خمسة عشر يومًا تقريبًا على البابور للذهاب إلى جدة، يوم ونصف على الحصان أو الجمل، من جدة إلى مكة. من مكة، إذا أردت الذهاب إلى المدينة، 8 إلى 10 أيام.» - «وبدروحنين؟» سألت. «إيوا! أنت تعرف بدرحنين؟» يفتح عينين مبتسمتين، مسرورتين، وينطق «إيوا» بنبرة مفاجأة ممتنة... للمرة العشرين، يحسب لي تكلفة رحلة عودته إلى المغرب: في المجموع، للذهاب من تونس إلى مالطا، من مالطا إلى طنجة، من طنجة إلى فاس وإلى واد سوس على الحصان، 50 فرنكًا؛ نصف البحر الأبيض المتوسط، كل المغرب يُعبر بهذا السعر — ليس غاليًا!

إيماءاته مهذبة كشخصه كله، معبرة كإيماءات المتوحشين. ليقول «كثير، جيد، غني»، تزن يده اليمنى الهواء بضربات صغيرة، كأنها ترفع ريشة؛ يصفر في الوقت نفسه، «منها، منها»، وبيده، كسكين، يشق الهواء في الاتجاه. منذ أن طلبت منه أن يعطيني الموقع الدقيق للمدينتين التوأمين، سلا-الرباط، على الساحل المغربي، يعود غالبًا إلى هذا الشرح بنفس المصطلحات، ليوضح لنفسه جيدًا: «هنا، سلا: لا يوجد سوى مسلمين، لا مسيحي واحد، ولا يهودي؛ هناك، الرباط، حيث تجد كل شيء، كما في تونس، قناصل، يهود، مسيحيين؛ بينهما النهر، لا جسر عليه، قوارب فقط. في مراكش أيضًا، لا يوجد مسيحيون، لكن يوجد يهود. آه! مختلفون جدًا عن هنا! لا تستطيع اليهوديات الخروج من حيهن الذي تُغلق أبوابه ليلًا بالسلاسل؛ المسلمون الذكور وحدهم يستطيعون الدخول إليه. المسلمات لا؛ حارس عند الباب يمنعهن. في فاس، مكناس، مراكش، لا يُسمح لليهود بالخروج من حيهم إلا حفاة الأقدام...»

يقول لي كل هذا ليجري مقارنة مطمئنة أمام العائلات اليهودية التي تصعد على الفلايك إلى حلق الوادي: يهوديات ممتلئات الصدور، متلألئات بالحرير، رؤوسهن عالية مزينة بقبعة ذات هيكل ذهبي تتدلى منها الحجاب.

«لا، ليس في مراكش سيتجولن هكذا!... وفي المغرب كله، عندما يشرب رجل ماء الحياة من اليهود، ويكون سكرانًا، هل تعلم؟ حسنًا، يُلقى به في السجن وتوضع عليه السلاسل.» - «لفترة طويلة؟» - «حتى يفكروا في إخراجه.»

كلما استيقظت ذكريات بلده وتلونت، ابتسمت عين الحاج أحمد لرؤية جميلة تمامًا، متفوقة على كل ما نراه في تونس: عصابات الوجه السوداء للنساء هنا، بوه! ليست جميلة؛ حجاب المغربيات، الجزائريات الأبيض، هذا أفضل! وهذا الباي الذي يجب أن يخدمه بضعة أسابيع أخرى، سلطان صغير فقير بجانب سلطان فاس، «الذي لديه حيوانات من كل نوع في حدائقه، للتسلية».

أحاول أن أجعله يتحدث عن واد سوس وضواحي مراكش، عن قريته، لكنه يجيب حينئذٍ بتحفظ شديد، إما خوفًا من الغرور، من تسمية قرية غامضة جدًا، أو خوفًا من كشف أسرار واد سوس وعش عائلته. أمر غريب، الصحراء التي هو جارلها، ينظر إليها كمنطقة غير صالحة للسكن. يجب أن تكون من عرق خاص لتعيش هناك. «أهل الصحراء، يقول، أقوياء، بطونهم صغيرة، وجوههم جافة لكنها جيدة، يعيش نوع من الخيول والجمال في الصحراء مع هؤلاء الرجال، ولها، مثلهم، بطن صغير؛ تشرب وتأكل قليلًا. نحن نموت في الصحراء.» - «أنت أيضًا؟» - «نعم.»

لا بد أن الحاج أحمد قد أخبر جمركيًا آخر، مغربيًا مثله، بعلمي القرآني، لأن الآخر — حارس وطني سمين، غير مبالٍ ومهذب بخجل — يحييني من بعيد جدًا، وسمعته ذات يوم يقول عني في مجموعة من مصلحي الشباك: «ها هو، إنه العالم، يعرف الكتب كفقيه، قرأ وكتب في مدارس المساجد...»

سألني أبو بكر بالأمس، عندما وصلت: «أين الصينيون (الشنوة)، في فرنسا؟» - «أوه! لا، يا أبا بكر، هناك بعضهم في فرنسا، لكنهم بالأحرى في الصين.» - «والصين، أين هي؟» - «يجب أن تبحر شرقًا، دائمًا، كما لو كنت

ذاهبًا إلى إسطنبول، لكن أبعد بكثير...» - «إذن هي أبعد من قره دنيز؟» - «ما هو قره دنيز؟» - «ألا تعرف؟» - «لا». يبدأ في الضحك ويخجلني. «والبحر الأبيض؟» - «ولا هذا، ليس بعد...» جاء دوري لأكون مرتبكًا تمامًا. «لكن للوصول إلى حلق الوادي، يستأنف، يجب أن تبحر على البحر الأبيض، بما أنه يمتد من تونس إلى إزمير وإسطنبول.» «آه إذن! نعم؛ لكن هناك آخر، يا أبا بكر، في بلاد الروس.» - يعبس ويقول: «ليس الحقيقي؛ البحر الأبيض يمتد من تونس إلى إسطنبول. وقره دنيز؟ بحر الأسود؟» - «البحر الأسود، نعم، أعرفه.» «آه!» وأنا أفهم جيدًا لماذا لا يخجل أبو بكر من جهله، عندما يسألني إذا كان الصينيون في فرنسا، بما أنه يلاحظ أنني لا أعرف هذا البحر الأبيض بعد أن عبرته، ولا قره دنيز، الاسم المعتاد لبحر قريب جدًا من إسطنبول. علومنا لا تتفق، هذا كل شيء. هو مقتنع بأنني أفتقر إلى الأساسيات ولا يجب الضغط عليّ في الجغرافيا.

«وكيف هم، الصينيون؟» يقول. «بشرتهم صفراء، عيونهم صغيرة كاللوز، ضفيرة من الشعر تتدلى على ظهورهم، كذيل الثور.» - يبدآن، هو ومحمد، في الضحك والشك: «كذيل الثور؟» «نعم.» - صمت. «وأنت، يستأنف أبو بكر، لماذا تطيل شعرك مثلهم؟ ما الجميل في ذلك؟» - «إنها العادة...، يدفئ...، أجمل...، رجل قوي يجب أن يكون له شعر...» - «لا، لا، أنت مخطئ، ليس جيدًا، الشعر يشرب الدم.» كل من يستمع إلينا يوافق: إنه يشرب الدم.

أستشهد حينئذٍ بشمشون وشعره، مستندًا إلى سلطة «الكتب». لكن محمد علي يتحداني بقصة أخرى — ليست أقل استخلاصًا من الكتب —، والتي بموجبها، رجل بعد أن أطال شعره، أصبح نحيلاً كقشة، لكن بمجرد أن قص هؤلاء السكارى من دمه، استعاد قوته وسمنته.

«انظر، انظر، هل هذا روسي من البحر الأبيض؟» قال لي فجأة أبو بكر الذي كان يتابع أحلامه الجغرافية. «ترى ذلك الصبي الصغير الذي يمر — جده كان روسيًا، «موسكو»، أصبح جنديًا لدى الباي، مملوكًا،

وأسلم؛ والده يذهب إلى المساجد، مثلنا جميعًا.» - «مسلم صالح؟» - «أووه! يقول محمد علي، ممتاز! يصلي، يقرأ القرآن!»

طفل جميل جدًا هذا الحفيد الصغير للمملوك. ببشرة غريبة: خدود محمرة كفتاة من الشمال، على خلفية بشرة تونسية داكنة، بعيون فاترة شرقية، عيون منتبهة قبل بريق الابتسامة، وجزء سفلي من الوجه أكثر قوة. حبات خال كانت ترقط خديه؛ الكل يذكره بصورة الممثل جيليوت الموجودة في متحف اللوفر، مزيج مضطرب من ذقن محلوق وخدود مطلية تحت الشامات.

منذ بضعة أسابيع، يمر كل يوم في سوق البركة شخصية صغيرة نشطة، قصيرة القامة، ذات إيماءات دقيقة، ومشي مهرول، ووجه مجعد، وعين ماكرة، وبشرة مدبوغة تحت قلنسوته الحمراء، تهتز في كل مناسبة بضحكات مفرطة تكشف عن أسنان جميلة جدًا بالنسبة لعمره (حوالي ستين عامًا) وتبدو كطقم أسنان اصطناعي. يرتدي ملابس زرقاء ناعمة، وتحت ذراعه دائمًا مظلة قطنية كبيرة. هذا هو علي، خادم الباي الموثوق به، إذا كان يجب تصديق أبي بكر، الذي قال لي بصوت غامض: «إنه دائمًا بجانب الباي، دائمًا...» ومع ذلك، نصادفه في كل زاوية من المدينة يتجول بمظلته. يعبر الأسواق وهو يطلق يمينًا ويسارًا تحيات ضاحكة، مزعجة، ودودة، وقائية قليلًا؛ فهو يدرك مكانته: خادم الباي! يبدو أن اهتمامه المستمر هو القيام بالمقالب، وخاصة تقليد نباح الكلب الصغير.

في اليوم الآخر، في ساحة القصبة، عندما غادر الباي، اقترب من المجموعات ونبح فجأة في ظهور البرنسات الهادئة، لدرجة أن الجميع ارتجفوا. لا أحد غضب: يعرفونه. اليوم، في سوق البركة، كان صبي صغير بائع برتقال يسير من كشك إلى كشك، حاملاً صينية متوازنة على رأسه. جلس الطفل القرفصاء ليعرض، لاختيار تاجر صناديق، الجزء العلوي من صينيته. وصل علي من الخلف، وأدخل يده تحت برنس الصبي، بنباح حاد لدرجة أن الطفل، وهو يتخبط كما لو أن الشيطان قد عض

فخذيه، قلب كل برتقاله في المجرى وذهب ليسقط هو نفسه على رأس تاجر الصناديق.

كان بائع البرتقال غاضبًا، وكان على وشك أن يضرب؛ لكن عندما رأى خادم الباي يلتوي من الضحك، تجمد من الاحترام، وجمع برتقاله واحدة تلو الأخرى دون أن يجرؤ على قول كلمة واحدة.

ما إن غادر علي، حتى بدأ الخياط المقابل، رجل طيب بوجه أبوي، يتفحّص المكان من فوق نظارته. كان يبحث بجنون عن نعاله ليخرج إلى الشارع. قلّب المتجر كله: تحت الحصيرة، تحت الطاولة، في الأدراج، وعند الجيران، بلا جدوى. بقي هناك حافيًا بجواربه البيضاء، محبوسًا على سجادته، يئنّ ويشكّ بالمارة، قابضًا يديه غيظًا.

وصل عبد المجيد في الوقت المناسب ليضحك في وجهه ويثير غضبه بمناداته «جويف». لم يجرؤ العجوز على القفز من حافة متجره، وأصابه بنظرته ذات النظارات من بعيد. أبو بكر، دائمًا أكثر حكمة، ومسلمون آخرون أيضًا، كانوا يبحثون بلطف عن نعال اليهودي. لا أعرف كيف خطرت لي فكرة أن أترجم لأبي بكر، مشيرًا إلى عبد المجيد المازح، التعبير المبتذل: «لديه عنكبوت في السقف»، «عنده رتيلة في رأسه».

بكى أبو بكر من الضحك؛ مرر محمد علي الكلمة إلى المتجر المجاور؛ تناقلها جميع أهل السوق؛ سرعان ما أصبح ضحكًا عامًا، ونداءات: «هل لديك عنكبوت، أنت؟» اعتقد «الجويف» أن المزحة موجهة ضده، وأكثر غضبًا، قفز بالجوارب على الرصيف القذر، يشتم ويزأر، وذهب إلى منزله ليحضر نعالًا أخرى. بعد ثمانية أيام، كنت أسمع، في سوق آخر بعيد جدًا، أحدهم يقول: «هو مهبول، عنده رتيلة في رأسه، هو مجنون، لديه عنكبوت...» إذا جاء يومًا ما عالم جامع للأمثال العربية ليحصيها في تونس، فلن يفشل في تسجيل هذا المثل الأصيل.

بعد ساعة، أعاد علي خلسة نعال اليهودي، التي كان قد أخفاها من باب المزاح.

عندما يكون الطقس حزينًا، والمتجر مظلمًا، تكون عين أبي بكر الضعيفة مريضة؛ لا يعمل، يذهب إلى الحمام، يعود، ويستلقي على كرسيه، يسبّح. ولديه مسبحة ذات حبات سوداء، كبيرة كالكُرات، الثلاثة والثلاثون حبة التي يُقال عليها «سبحان الله»، بالإضافة إلى الذيل الصغير الذي يحل محل صليبنا المسيحي. وهذه المسبحة تأتي... من تونس؟ تبًا! من إسطنبول؟ لا: من مكة، من بيت الله نفسه! إنها مصنوعة من عجينة العنبر، والمسك، وخشب القمر «الذي ينمو في الهند، ولا تفوح رائحته جيدًا إلا في الليل؛ يزعجه الضوء». وفي الواقع، رطوبة الأيدي تجعله ينشر عطرًا حلوًا جدًا.

في أيام الفراغ والملل هذه، يبدو أن التجار عاجزون عن ملء وقتهم: يقضون ساعاتهم في مقارنة خواتمهم ومسابحهم. أخرج عبد المجيد واحدة من جيبه، كانت من نوع من السليولويد الذي يحاكي المرجان. نظر إليها محمد علي وقال: «ليست جيدة، إذا أضرمت فيها النار، تشتعل كالورق وتتبخر في يدك.» فارتعب عبد المجيد فجأة من مسبحته، شعر بالاشمئزاز، ثم نادى على رجل يراه في السوق، رجل يشبه وسيط السوق أو وسيط المبيعات، بمظهر وقح قليلاً، ويتحدث الفرنسية بشكل متقطع، وكان يبدو وكأنه يعلن: «أنا وسيط تجاري.» وقف الرجل أمامه وكأنه يصدر حكمًا: «خذ مسبحتي،» قال عبد المجيد له، «اذهب وبعها، حاول...» ثم ابتعد الرجل إلى مكان آخر.

وبينما كان عبد المجيد في حالة من الاشمئزاز والمرض أكثر من المعتاد، وضع الشاب المطرز يده على الوسائد واحدة تلو الأخرى ليدعم ظهره، وكان قد أمسك لتوه بمنديله بين يديه، يفحصه بعناية من الأطراف، ويجعد القماش بين أصابعه، يمعن النظر في شفافيته، وخيوطه، ونسيجه، وقال: «إنه قماش جيد، متين، أبيض جدًا، كم دفعته؟» أجبت بأنه لا يعرف، فكانت أمي من اشترته... بدا أن جهلي بملابس البيت أدهشه كثيرًا؛ فقد وجد، هو الآخر، أن تربيتي غير كاملة، لأن جميع الشباب العرب، حتى

الأغنياء والأنيقين منهم، لديهم معرفة غريزة بعملية الشراء، يعرفون كيف يميزون «الخيط الخالص» عن «الخيط والقطن» بدقة، كما لو كانت هذه غريزة ربة منزل لا يمكن لأي أحد خداعها.

عاد الوسيط التجاري مع المسبحة التي لم ينجح في بيعها، وكان قد أحضر معه بائعًا متجولًا آخر يعرض أيضًا مسبحتين. في هذا الشهر من رمضان، تكون هناك تجارة نشطة إلى حد ما؛ عمليات بيع وشراء، وإعادة بيع، وتبادلات، سواء كان الهدف الربح، أو لأن المتدينين المترفين يشعرون بالملل من الصلاة على نفس الحبات مرارًا وتكرارًا؛ التجارة هنا تشكل تسلية وهواً بقدر ما هي نشاط اقتصادي.

الوافد الجديد، بعد أن لاحظ خلو المكان من المشترين، جلس وبدأ الحديث مع محمد علي. عرف عن نفسه قائلاً: «جندي سابق من معسكر» —من المؤكد أنه يقصد عبد القادر—. يتحدث التركية قليلاً، ويمتلك وجهًا غريبًا، كوجه مهرج أسمر، كاريكاتيري لجُنرال عجوز تتشنج عضلات وجهه تحت ندوبه، بعينين واسعتين ومشدودتين. بدأ يسرد قصصه متقطعًا، مقاطع صغيرة يخرجها بصوت «بروت، بروت» من طرف شفتيه، بسرعة كبيرة يصعب معها فهم حديثه:

التبغ بالتركية يُسمى ‹توتون›... والطرف الكبير من العنبر في الغلايين ‹كارابان›... انظر، عندما تفرك العنبر، ترى الأوراق الصغيرة... تركض... ومدفع صغير، كما كان في المعسكر، في باردو، يوجد أيضًا، هل تعرف اسمه؟ ‹جرجبان›، بالعربية، بالتركية... لكن للانتصار، المدافع لا تساوي شيئًا... خيالة جيدة، آه! هذا أفضل!... تعرف ركوب الخيل مثل العرب، على السروج ذات المقبض الكبير؟ آه! ‹الفروسية› صعبة، صعبة جدًا!... تركب السرج، ‹بروت›، تعدو، تتوقف، ‹بروت›، المقبض يدخل في معدتك، ‹بروت›، تموت وتسقط... هذه هي الفروسية العربية... قل لي، هل تعتقد أنه مات، سيدنا عيسى؟ هل مات أم لا، لنرَ، قل لي؟»

رفع الآخرون رؤوسهم جميعًا عند هذا السؤال، ينتظرون ردة فعلي.

«نعم،» أجبت، «سيدنا عيسى مات منذ زمن بعيد.»

«مات؟ مات حقًا؟» كانت جميع العيون مثبتة عليّ مباشرة، بلا أي تغيير في ملامحي. كررت: «مات، منذ ثمانية عشر قرنًا.»

ابتسم وقال: «حسنًا، لو كان إلهًا كما يقول المسيحيون، لما مات، لأن الله لا يموت... أليس كذلك؟ هيا، وداعًا، وداعًا.» ضحك كمنتصر، صافحني بقوة، ثم غادر.

ذهب محمد علي بدوره للتجول في الأسواق، وعاد حوالي الساعة الثالثة، مصطحبًا ابنه الأصغر، عبد الكريم، طفل في الرابعة من عمره، الذي أراد بأي ثمن التبول على السروج المطرزة بالذهب، لينتهي به المطاف نائمًا على السجادة أمام والده، وخدوده محمرة من النوم الثقيل، في وضعية حب برأس محلوق.

اشترى محمد علي علبة تونة أخرى، ومع الباقي أعطوه ورقة نقدية فئة 50 فرنكًا. قلب الورقة في كل الاتجاهات، محاولًا اكتشاف التشابه بين الرسوم الصغيرة والرموز التي رآها من قبل، يبحث عن «العلماء» و«التجار». أرقام السلسلة أربكته بشكل خاص: «ماذا يعني هذا؟» أجبت بأنني لا أعلم: «الحكومة وحدها يجب أن تعرف...»

«وهذا، 40؟»

«حسنًا، إنه رقم، كغيره... إنه نفس رقم متجرك في السوق...»

«رقم المتجر؟» سأل أبو بكر بحذر، «أين؟ أي واحد؟»

هناك، يا أبا بكر، في الأعلى، 40، اللوحة الزرقاء الصغيرة...

«لكن لا... لا أعرف... لماذا؟»

«هناك... انظر...» وضع أبو بكر قدميه في نعاله وابتعد بضع خطوات عن الواجهة، «ليفهم» هذا الرقم 40 المثبت على الحائط! يا أنيق أبا بكر، كم كنت عظيمًا وبطريركيًا، وأنت تذهب لاكتشاف «الأزرق الصغير» الذي، منذ أربع سنوات على الأقل، يصنف كشكك في السوق!

في هذا المتاهة من الشوارع البيضاء، الحزينة والملتوية، التي هي تونس،

هناك بعض التقاطعات حيث يبيع التجار الصغار للناس العاديين، وتتميز واجهاتها بالترحاب، وتمتد البضائع للمارّة. نقطتان بارزتان بشكل خاص: الأولى عند سفح جامع الجزيرة، والثانية في أعلى باب سويقة.

مع اقتراب المغرب، يتجمع بعض الحلوانيين التونسيين حول جامع الجزيرة وفي شارع الصباغين، زقاق يعج بخيوط الصوف البرتقالي والأزرق التي تُعلق على الحبال لتجف. يترقب الأطفال هذه الحلويات المزخرفة بلمعان من الأعلى وثقيلة من الأسفل: التمور المحشوة بالجوز (تيمور أو جوز)، وهي على شكل أزهار صغيرة من التمر تحتضن الجوز؛ المكروت، شرائح من كعك سافوي مغموسة في السكر؛ الزلابية، قشور بالعسل؛ الرّيبا، أقماع من الزبيب (مزيج سيء!).

معجون السدور (مربى الصدر)، عجينة صدرية من البندق والتين ودبس السكر؛ وأخيرًا النوجة (حلوة الحلقوم)، الحلوى الوطنية، الحلوى العربية الرسمية، النوجة البيضاء كالحليب، ونوع آخر أقل بياضًا يسمى الجيجلان، مملوء ببذور صغيرة «تأتي من تركيا وتمنح قوة كبيرة»، وهذه البذور عند مضغها تفوح منها رائحة الغاز؛ ناهيك عن البيض المسلوق المحشو في فطائر، حيث يبرد الزيت باستمرار!

تتنقل النسوة الكبيرات، ربات البيوت الفقيرات، بين المكان بأوعية الحليب أو قطع لحم الضأن النازف؛ يزداد نشاط الحركة؛ وصفارات الترام تمر على سككها، مسببة بعض العجلة وسط هذا الجمع البطيء، الملبوس بالبيض القذر. عند زاوية من التقاطع، تكون مقاعد المقهى ممتلئة منذ ساعة: حشد من العمال التونسيين مصطفين رغمًا عنهم على المقاعد، ينتظرون بجلسة الأرجل متقاطعة، دون تدخين أو شرب.

لا يتحركون بسهولة، إلا إذا حدث حادث مهم بالنسبة لهم، مثل تحطم جرّة زيت؛ عندها، سيأتي الجميع لمسح الزيت عن الرصيف بأصابعهم، مستمتعين بهذه الفرصة. العرب يحترمون الزيت؛ إنه سلعة ثمينة، وهم مقتصدون فيه؛ ويلحسون القطرات من أعناق القنينات.

في إحدى الأمسيات، بالقرب من هذا المقهى، كان ثلاثة فقراء تونسيون رثو الملبس، ينتظرون المغرب بجانب جدار. فجأة، دوي المدفع؛ وقفوا بسرعة وهم يصرخون «آه! آه!» صرخ فيهم إيطالي، بائع سكاكين متجول، بنبرة ساخرة ووقحة: «manggiar, hein؟ تأكلوا الآن!» فارتبك الفقراء، وبدت عليهم ملامحهم الدينية المتحفظة. ثم استعادوا هيبتهم الإسلامية، ونظروا إلى الإيطالي من أعلى إلى أسفل دون أن يجيبوا، ومضوا في سبيلهم.

في الليل، في هذا الحي المنعزل، تلك الشوارع الطويلة بلا مخرج جانبي، الممتدة من جامع الجزيرة إلى باب الفلة، كنت أرى أحيانًا مجموعات من الأطفال والرجال الكبار يتبعون بلا كلل موقد الغاز، لمشاهدة شعلة اللهب التي تنطلق بتأمل.

أما السوق الشعبي الآخر، فيوجد في شمال المدينة، أيضًا على مسار الترام في شارع باب سويقة (باب سويقة يعني: بوابة السوق الصغير). إنها ساحة مربعة تلتقي فيها شوارع سيدي محرز، شارع الكبد، أولاد سيدي بن زياد، والطريق الطويل المؤدي إلى ساحة الحلفاوي. عادةً، تكون ساحة سويقة خالية وهادئة، تحيط بها محلات مهترئة، ويحييها صخب بعض باعة الخبز العربي. لكن في رمضان، يحل محلهم طابور من الباعة، يقدمون الخبز ليلاً، بصخب وصياح. بعد ذلك، يفرغ التقاطع تدريجيًا بعد إتمام المشتريات.

ثم تشتعل المصابيح الدخانية، وتنتشر طاولات بائعي النوجة، ومقالي بائعي البينيس (اللقيمات)، على طريق الحشود الأوروبية والعربية واليهودية، التي ستأتي بعد ساعة لمشاهدة العروض مثل قراقوز والمسرح الإيطالي. فتلك الشمعة الصغيرة المحترقة في الزيت، على حافة إناء، تخفض دخانها الأسود على الزيت المقلي والنوجة البيضاء.

أخيرًا، يحدث صعود، بين الساعة الثامنة والتاسعة.

في أسفل المدينة، تبدأ حركة الترام بالازدياد ويزداد صخب الركاب:

مصابيحها الخضراء الفخمة تطغى على الومضات الضعيفة للشموع في المحلات الصغيرة. هذه هي الساعة التي يأتي فيها الفضوليون «ليشهدوا رمضان»، فبما أنهم لا يستطيعون دخول المساجد، ولا يرون شيئًا مميزًا أثناء النهار، ربما كانوا سيقولون إن «رمضان مجرد مزحة»، لولم توفرلهم ساحة الحلفاوي شيئًا يشبه الاحتفالات الأوروبية: الضوضاء، المصابيح الملونة، الأرجوحات، والمهرجون، وخاصة الكبير، الساخر، الذي لا يُضاهى، قراقوز، البهلوان التركي! هناك، على الأقل، يجدون حشدًا حقيقيًا يدفعون بعضهم البعض ويشمرون عن سواعدهم في زحام صاخب، حيث تتصادم قبعات الفنانين الإيطاليين مع القبعات العالية والطربوشات، ولوكانت أجمل فتيات تونس المسلمات حاضرات، لكانت حفلة حقيقية ومرحة؛ لكن للأسف، يبقين في بيوتهن ويخافن من الزحام. ومن النساء، هناك بعض المسيحيات، وبعض الإيطاليات بالقبعات المزخرفة.

— «لوجيا، لوجيا!» هكذا يصرخ بائع بذور بيضاء في كشك من الورق الوردي.

— «قلب لون، قلب لوز!» ينادي بائع المكرون التونسي في ضوء أخضر.

— «الديا غريبا، الديا غريبا!» يغني إسباني بنبرة مزيفة وهو يعرض مكسراته وحلواه.

— «لاسكاري! لاسكاري!» ينادي إيطالي على الحلويات السكرية.

— «هارنجا، هارنجا!» لمن يفضلون الأسماك المالحة.

— «كاكاويا، كاكاويا، اشربوا!» تمر سلة من البرتقال الأحمر على قبعة أحد الباعة، وصوت البائع الخجول يحث على الشراء. فجأة، صوت حنجري كالديك يتكرر: «قراقوز، قراقوز!» وبين شمعتين أمام باب ضيق يظهر مهرج تركي بسيط، ويشير بحركات مضحكة لدخول العرض. الستارة البيضاء تتفتح لتظهر دمى ملفوفة بالقماش، ورأسها عبارة عن قناع

رخيص على عصا، يقفز ويضرب الأرض، ومن فتحة في بطن الدمية يظهر وجه وردي لطفل يحركه.

ثم تظهر مسارح إيطالية في محلات ضيقة أخرى، شموع تحترق، خيوط تعلّق عرائس من الدمى، وشيشيلياني وسيم يحاول جذب الجمهور، والعرب يحدقون مذهولين بلا فهم. الجمهور أمام ستارة بيضاء مغلقة يظهر فيها ظلال غريبة: أنوف ضخمة، طربوشات كبيرة، أذرع صغيرة للنساء ترقص. الموسيقى العربية تهمهم، والطبلة ترن، والجرس يدق، والضحك يتصاعد. فجأة، يظهر حيوان خيالي: حصان يجر أغطية حمراء، رأسه سلة مغطاة بالجلد، يركض ويستدير؛ الأطفال الذين يحركونه يتأرجحون، يسقط أحدهم ويبقى الآخر واقفًا؛ النجاح كبير والجمهور يضحك. بجانبه، بائع لوجيا الحزين يبدو مريضًا تحت ضوء كشكه، لا تتحرك شمعته ولا يقترب أي مشتري.

لا يدخل هذا العرض سوى القرويون والأطفال والأوروبيون الفضوليون، بينما المسلمون الجادون يجلسون على الحصائر في محلات الحلاقين الصغيرة، المضيئة والمزينة بالمرايا والألواح المنحوتة، مطلية باللون الأزرق السماوي وباقات الزهور. هناك يرقد البعض ممتدًا، والبعض الآخر يتكدس تحت الأضواء، ويحب الحديث أثناء التدخين. الأكواع تبرز من النوافذ، وهناك عدد هائل من هذه المحلات المزخرفة، كصف من العربات المضيئة، والناس الجالسون وجهاً لوجه يبدون مضحكين .

الصراخ والبوق والطبل تتراجع تدريجيًا، ويعود الهواء الهادئ. هناك أرجوحة تونسية، «الدّوى» أو«الدّورال» في دكان ضيق، وبجانبها مجموعة من الأطفال المسلمين الجميلين والمطيعين، يتناوبون على اللعب في السلة الدوارة التي يدفعها رجل، ويستمتعون في صمت. على الباب، ويجلس بعض الأطفال على الرصيف ويغنون ترنيمة على إيقاع تصفيق أيديهم.

في ساحة الحلفاوي، في الليل، تُفرش حصائر سميكة حول عدة

مصادر ضوء: فوانيس ضخمة على قواعد منخفضة. هناك يستلقي البورجوازيون التونسيون، ويتحدثون دون اهتمام بالمسيحيين الفضوليين، متابعين الهلال الجديد وقرب نهاية أيام رمضان. أحيانًا، تظهر فرقة من الشباب المسلمين ممسكين بأذرع بعضهم، ويغنون ترنيمة «صلّي على النبي» متزامنين مع خطوات أقدامهم، في هدوء وانضباط، بعيدًا عن الصخب والابتذال، ليشعروا بالمتعة الحقيقية في التجمع الليلي تحت السماء المخملية، بعيدًا عن الكحول والطعام المفرط، حتى وإن كان هناك بعض الباعة يبيعون أدوات حادة وبنزين على أرصفة العلم الوطني.

ثم تدخل المحلات التي تُعرض فيها الدمى المضحكة على الستارة البيضاء. ستة صفوف من المتفرجين مرتبة مثل المدرجات، وثلاثة صفوف ملاصقة للجدار الأيمن، وثلاثة للجدار الأيسر، وممر ضيق في الوسط تتحرك فيه راقصة شابة. الجمهور مكوّن من عامة الناس من تونس، وبعض القرويين بالطرابيش، واثنان أو ثلاثة من البورجوازيين، وعمال إيطاليون، والكثير من الأطفال المسلمين.

الراقصة، فتاة يهودية صغيرة تبلغ خمسة عشر عامًا، وجنتاها وشفاهها مغطاة بمكياج يخفي شبابها، ترتدي تنورة زرقاء سماوية، وتؤدي حركات الرقص المغربي التقليدية، مع رفع وشد الأذرع وحركات تشبه المبارزة. تمرر وشاحات بين صدرها وظهرها، توازن حركتها، وتقترب من كل مشاهد في الصف الأول. بعض النظرات تنحرف خجلاً، والبعض الآخر يشعل الرغبة، ثم تبتعد وتعود، وتجلس أحيانًا على ركبة أحدهم، وتحرك وركها مع إيقاع الطبل والموسيقى العربية، بينما يخرج المال من المحافظ، ويعطي الإيطاليون والفرنسيون سنتين، والعرب يضعون النقود البيضاء بحماس من ملابسهم التقليدية.

بعد انتهاء العرض، يقترب فتى أسود صغير، كان يقدم الماء بالعسل للمشاهدين، ويلف طرف وشاح طويل حول خصره، والراقصة تلف الطرف الآخر وتبدأ بالرقص المتزامن معه، محاكية حركة تزاوج الكلاب،

بينما تتابع الفتاة حركاته بعينيها، مبهورة ومنجذبة. تسحره بعينيها، وترفع ذقنها نحوه. من وقت لآخر، كانا يلتفان دورة من الوشاح. عندما التقيا، هاجمها الزنجي الصغير بضربات من خصره، واستمر على أربع في تفككه، وألقى الوشاح وانسل، ملامسًا بلطف عند المرور بأيدي مدخن حشيش، مخدر، عيناه منتشيتان وأنفه يتنفس بقوة. توقف المزمار على الفور، ودخل يهودي بعيون قيحية، والد الراقصة، وأخذ ابنته المطيعة جدًا، وأخذها بيده...

«هل أنت ذاهب؟» قال لي أحد الأنيقين التونسيين. «لكنك لم ترَ العرض الكبير، الفرجة الكبيرة؛ إنه الأجمل...»

في الواقع، انفتح صندوق مضاء في الخلف وبدأ ساحر بعمامة، وذراعاه عاريتان، يقوم ببعض الحيل الأولية ذات جاذبية ضعيفة: ريش يخرج من قبعة، ساعة تتغير إلى قطعة من فئة خمسة فرنكات. أصبح الصمت عميقًا، جميع الأفواه مفتوحة أمام هذا السحر. فجأة، خرجت مجموعة من براعم الورود من القبعة؛ انطفأ الضوء، وظهرت الفتاة اليهودية الصغيرة مرة أخرى، واندفعت نحو الورود، وجمعتها كلها تقريبًا، برشاقة أكبر، وذهبت لبيعها عند الباب مرة ثانية...

بعد قليل، يواصل عارض «القراقوز» صرخاته الحنجرية؛ يزدري هو الموسيقى والإعلانات، فـ«القراقوز» معروف جدًا! قديم جدًا! لا ينسى من قبل أولئك الذين لديهم ذاكرة للضحك! «القراقوز»، جريء، وحده، كثورة كاملة، منتقم من الملل المفروض، كمسرح كوميدي كامل، قاسٍ كعشرة جلادين، دقيق كشبح، سريع كجماعة طائر، فصيح، ساخر وربما أخلاقي! سمعنا الكثير من الإشادة بمآثره في صالونات تونس الجديدة، وتمنينا كثيرًا أن نراه بالكامل. لذلك نتكدس في المتجر الطويل، الممر المبيض بالجير، الذي تضيئه الشموع.

الدمية التي لا تكل تترنح برأسها ضد السقف؛ الجرس يدق في بطنها المصنوع من القماش: هذا يكفي لإضحاكنا وانتظارنا. الكثير من الأطفال

على المدرجات العليا يشكلون «ستارة» ضد الجدار. أحيانًا تدخل سيدة، بقبعة على الموضة، وتجلس ممسكة بذراع زوجها. أخيرًا، يضاء الخلف، ونشهد إشعال مصباح خلف الشفافية الزيتية. ها هوواضح؛ يُسمع صوت بولشينيل؛ يضع الكوميديا في صوته الأنفي ولا ينجح في أن يكون مضحكًا، ثم يظهر ظل صغير جدًا، مسلح بسيف، كشفرة؛ يتقدم، يكبر ويتحدث. يظهر شخصية أخرى، سيئة التناسب، هو أيضًا، لدرجة أنه جنس أكثر من كونه رجلاً. شجار بينهما؛ معركة: الهراوتان تتغلغلان، تسحقان. يهرب أحدهما بصرخات قرد؛ يبقى الآخر منتصرًا، لكنه يتعرض لهجوم جديد من ظل، يُحتضن، يُدحرج، يُطارد، ويُغتصب من كل جانب على الرغم من شروحاته، وهو يركض، يطير ويقفز. وهذه المعركة من القضبان التي تهدد، وتضرب وتتفاوض، ويتوالى المشهد العنيف والمبالغ فيه، كوميديا مبتكرة ربما من لاعب مسرح تركي عجوز، للتسلية والضحك العنيف.

يستمر هذا عشر دقائق بالكاد، وهذا يكفي لإثارة فرحة كبيرة في المتجر حيث نتكدس كتفًا بكتف. يتردد صدى المرح الهائل حتى الشارع. يغادر الرجال، و«طحالهم» متوسع تمامًا، لكنهم يستعيدون جديتهم بسرعة في الخارج. الأطفال، ظهورهم إلى الجدار، يبقون مخدرين، عيونهم غائرة، وجوههم الجميلة متأملة خلف قطعة من البرنس مسحوبة على أفواههم، غارقين في أفكار موحية لعدم خبرتهم. أما سيدة أوروبا، المحمرة من الخجل حتى جبهتها، فتجر زوجها وتوبخه أمام الفانوس الأحمر لـ«الكوميسار» الذي يلمع على بعد خطوات قليلة.

إنها الساعة العاشرة. تيار الحشد يسير في الاتجاه المعاكس. ننزل عبر باب سويقة إلى تونس المسيحية. هذا الشارع المزدحم مهجور ومظلم بالفعل في هذه الساعة، فقط أبواق الترام ذات الصوت الغرابي توقظه. جميع الشوارع الإسلامية صامتة؛ تموء القطط وتتقاتل على الشرفات، تبدو كممرات مقبرة بين عائلات نائمة. وفي الليل الذي ينبض بنبضات النجوم، ترتفع المآذن مضاءة بمصابيح صغيرة تشير إلى موقع المساجد

المفتوحة دائمًا في رمضان، كخطة بسيطة لمدينة صلاة فوق متاهة الشوارع، كرمز يُحتفظ به جانبًا، لهذا الدين الذي يعطي «القهاب» الصغيرات هذا المظهر العابس قليلًا، يمنعهن من الخروج في المساء وغدًا صباحًا من إعطاء قبلة واحدة أخرى لصديقهن، عندما يشير ظهور الفجر إلى بداية الصيام من جديد. هذه الأضواء المتواضعة تحمر، معزولة، في أعلى الأبراج، تاركة أضواء التباهي في تونس الجديدة: الغاز، وثريات المقاهي، الفنادق، «الألكازار»، تصدر ضجيجًا.

لقد رأيت مرة أخرى، وربما هي الأخيرة، الحاج أحمد، الجمركي. يعد الأيام، يحلم أكثر فأكثر، يعتقد نفسه قد تحرر بالفعل من زيه الرسمي، بعيدًا في البحر، بعيدًا جدًا عن بحيرة تونس الموحلة. هو متحمس، مشتت، خفيف، مستعد للرحلات. مواطنه، الجمركي السمين، يأتي ليجلس بالقرب منه، يداه متشابكتان، متدليتان بحزن على الركبة. يشعر بوضعه لأول مرة في حياته، ويشرح لي بنبرة اعتذار: «هو، أحمد، حر، ليس متزوجًا، ادخر؛ لكنني تزوجت في تونس... الزوجة، الأطفال... متى سأتمكن من العودة إلى المغرب؟» ينظر بعيدًا، بعين جاهزة للدموع، إلى جبال الداخلة، سلسلة جبال زغوان الجميلة، التي تبرز باللون الأزرق الضبابي على ساتان السماء الصافي. الحاج أحمد، زاهد، وجنتاه جافتان، عينه محمومة، رأسه مليء بالمسارات الجغرافية.

للمرة المائة، يرسم لي بطرف عصاه موقع سلا-الرباط: «بينهما... لا جسر... قارب...»

سألته لأختبره: «هل تريد أن نذهب معًا إلى مكة؟» أجاب: «إلى مكة، لا يمكنك، لكنك ستتوقف في جدة، ستنتظرني، وبعد ذلك سنذهب إلى طنجة، إلى فاس...»

- «وإلى واد سوس، هل تريد أن تأخذني إلى هناك؟» يبتسم بحرج، دون أن يجرؤ على الرفض، كصديق يُطلب منه كلمة سر خزنته: «أنا أريد، يقول، لكن قبائل الجبال هم الذين سيقتلونك، لأنك مسيحي.»

يا كائنًا طيبًا، لا يجب أن أراك مرة أخرى بلا شك، إلا إذا شاء إلهك. كنت سأجوب معك «البحر الأبيض» والبحر الأحمر، مبللين كلينا برذاذ الأمواج، في أقصى مقدمة «بابور». كنت سأنام بجانبك في الدرجة الرابعة، مغطيين معًا ليلًا بشراع من شفقة البحارة؛ كنا سنتغذى على أرغفة خبز عربي صغيرة، جميلة جدًا للعين، حجرية جدًا تحت الأسنان... لكنك كنت سترتجف، يا حاج أحمد، لو اخترقت أسرارواد سوس، هذا الوادي الذي يهمك كثيرًا وحيث الناس سيئون جدًا.

يومًا ما، يا حاج أحمد، يا كائنًا طيبًا ساذجًا ضائعًا لصداقتي، سأذهب إلى المغرب، وآمل أن ألتقيك حافي القدمين، تحت برنس حر، بندقيتك الواقية على كتفك، تقود عبر المستنقعات حمارًا أجرب، وحينئذٍ سأستعيد عند رؤيتك عاطفة ومضة صداقة. سأحيي، أنا أولًا، وجهك كطفل عجوز عاطفي وشجاع، أنت، حاج مرتين، قديس مرتين. أريد حتى أن أتعلم سورًا أخرى عن ظهر قلب لأساويك، وأهزمك في اللاهوت. وعندما نتجول في بساتين زيتون واد سوس، سنتحدث مرة أخرى عن رمضان، الذي دردشنا عنه معًا في تونس، أمام الفلايك الثقيلة، والعين على البحر الذي يؤدي إلى الحج.

تمت ترجمة الكتاب بحمد اللّه تعالى

الكشاف

1. كشاف الأعلام (أسماء الأفراد والجماعات)

2. كشاف الأماكن والبلدان

3. كشاف المصطلحات والمفاهيم

وكثيرًا ما يركض اثنان أو ثلاثة من العرب نحو أي غريب في الحشد، ليتخذوه حكمًا في مسألة العملة. فهناك فرنكات إسبانية ويونانية مشكوك في قيمتها، وريالات ماريا تيريزا التي. والبعض الآخر، أكثر تطلبًا، يرفضون أي عملة تحمل صورة ملكة، ولا يقبلون إلا صور الملوك الذكور.

ذات يوم، قال لي تاجر طرابلسي أمام معسكر الباشا: «قائد الفرقة لا يحب العملة الفرنسية أو الإيطالية. يقول: ما دمنا تحت الحكم التركي، فلماذا نقبل عملات أخرى غير التركية؟»

فسألته: «ولكن ماذا عن الدولارات؟»

أجاب: «آه! الدولارات أمر مختلف! كلها جيدة وممتازة، فرنسية، إيطالية، إسبانية، لا يهم... المشكلة فقط في القروش السيئة.

مسكين هذا القائد الذي يشن حربًا على القروش الأوروبية، بينما تتدفق عليه الفرنكات والدولارات التي يبحث عنها الجميع بشغف! أليس هذا هو حال الشرق كله؟ يبذل جهدًا لا يصدق لسد ثغرات صغيرة، بينما يترك أبوابًا كبيرة مفتوحة على مصراعيها.

LIBYAN
WORD
BRIDGE
Translation

الجمعية
الليبية
للدراسات
الأمازيغية